رواية | NOVEL

توماس مان

# موت في البندقية

ترجمة وتقديم

كميل قيصر داغر

أزمنة

@ketab_n
Follow Me
@ketab_n
Follow Me
3.6.2015

رواية

توماس مان

@ketab_n

# موت في البندقية

ترجمة وتقديم

كميل قيصر داغر

أثر

Twitter: @ketab_n

# موت في البندقية

Twitter: @ketab_n

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠١٤/٨/٣٧٢٧

٨١٣٫٩
مان، توماس
موت في البندقية/توماس مان، ترجمة كميل قيصر داغر.
ط٢ ـ عمّان : دار أزمنة للنشر والتوزيع، ٢٠١٤
(١١٨) ص.
ر.إ. ٢٠١٤/٨/٣٧٢٧
الواصفات : القصص العربية//العصر الحديث/

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

ISBN 978-9957-09-598-7 (ردمك)

**موت في البندقية**

**توماس مان (كاتب من ألمانيا)**

**الطبعة الأولى : 2015**

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق ©

أزمنة ®

أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس : 5522544
ص.ب: 950252 عمّان 11195
شارع الشريف ناصر بن جميل ، عمارة 55 (الدوحة) ، ط4
info@azminah.com info@azminah.net
Website:http://www.azminah.com

جميع الحقوق محفوظة ، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من المؤلف .

تصميم الغلاف: إلياس فركوح

الإخراج الداخلي : أزمنة (نسرين العجو، إحسان الناطور)

تاريخ الصدور : كانون ثاني/يناير 2015

Twitter: @ketab_n

# توطئة

حين قررت في ربيع 1975 أن أنقل إلى العربية مجموعة الدراسات التي كتبها جورج لوكاش عن الروائي الألماني العظيم «توماس مان»❖، كان اسم على تلك الدرجة من الضخامة والأهمية غريباً جداً عن القارئ العربي الذي لم يتسن له أن يقرأ شيئاً من نتاجه أو أن يعرف عنه، رغم أن مقامه في الرواية الألمانية ـ والعالمية ـ يضارع مقام عمالقة القصة في العالم، تولستوي أو دوستويفسكي في روسيا، بالزاك أو فلوبير في فرنسا.. ناهيك عن أسماء أقل بريقاً بكثير تمكنت من شق طريقها إلى المكتبة العربية.

إلا أنها كانت مفارقة حقاً أن يجري البدء بالتعريف بالروائي الألماني عبر دراسات نقدية عنه، بدل نقل رواياته مباشرة وأعماله الأدبية الأخرى. وإنه لمثير أكثر أن يكون سبق صدور ترجمة مقالات لوكاش عنه، نشر تعريف لبحث نقدي يتناول فيه إسحق دويتشر تلك المقالات بالذات❖❖.

خروجاً من تلك المفارقة التي أسهمت فيها شخصياً، لم أجد بداً من الإسراع في نقل أحد أعماله القصصية المعبرة والمرهفة، عنيت قصة

---

❖ صدرت الترجمة المذكورة في تشرين الأول 1977 عن «المؤسسة العربية للدراسات والنشر». بيروت.

❖❖ نشرت ترجمة البحث المذكور في مجلة «دراسات عربية» صيف 1977.



Twitter: @ketab_n

«الموت في البندقية» التي قيّض للعديد من هواة السينما الفنية في لبنان أن يروها منقولة إلى الشاشة في فترة سابقة من هذا العام❖. وبالطبع فإن القصة على جانب من الغنى والكثافة أعظم بكثير مما هي الحال مع الفيلم. وهذا ما يجعل قراءتها عملاً لا غنى عنه.

ولد توماس مان عام 1876 لعائلة برجوزاية كانت تقيم في لوبك منذ بدء القرن التاسع عشر. أما والدته فكانت برازيلية ذات دم مختلط. قضى طفولته في البيت القديم الذي أبرزت رواية **آل بودنبروك** (1901) صورة دقيقة عنه، وظهرت ملامحه في روايات وأقاصيص أخرى من مثل **الجبل السحري** و**تونيو كروجر** و**تريستان** و**السيد الصغير فريدمان**. إنتمى لأوليغارشية تحب العمل والمال، لكن كذلك الترف والرفاه. إلا أنه استطاع أن يلتقط بسرعة نقاط ضعفها واختلال توازنها، رغم ما يبدو عليها من تماسك وواقعية، وقد رسم صورتها على هذه الخلفية بالذات، فإذا نحن أمام مشاهد انحطاطها ودمارها بدل صعودها وعظمتها. ولعل الجذور العميقة لتلك الصورة تمتد في تجربة مان بالذات، إذ فقد والده وهو بعد طري العود، وكان على والدته أن تصفي أعمال العائلة في لوبك وتبيع البيت، منتقلة وأولادها الخمسة إلى ميونيخ، وهو لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره.

هناك اشتغل في شركة تأمين، إلا أنه سرعان ما ترك الأعمال المكتبية بعد أن نشرت أول أقصوصة له، ليتجه نحو دراسة الفن والأدب. وقد انصرف نهائياً، بعد عام قضاه في روما، إلى النشاط الأدبي.

---

❖ كُتبت هذه التوطئة سنة نشر الطبعة الأولى للرواية، عام 1979 عن المؤسسة العربية.



Twitter: @ketab_n

لم يكن تجاوز الخامسة والعشرين من عمره حين نشرت له روايته الكبيرة الأولى، **آل بودنبروك**، (1901). أما عمله الضخم الثاني، **الجبل السحري**، فظهر عام 1924، فيما صدر له في الفترة ما بين التاريخين العديد من الأعمال المرموقة، من مثل **صاحب السمو الملكي** (1909)، **والموت في البندقية** (1911)، **وتأملات إنسان غريب عن عالم السياسة** (1918).

عام 1926، طلب منه فنان ميونيخي كتابة مقدمة لألبوم رسوم مخصصة ليوسف، الشخصية المشهورة في التوراة، فكان ذلك منطلقاً لرباعيته الضخمة **يوسف وإخوته**، التي ظهر أول جزء منها عام 1922. في ذلك العام وصل هتلر إلى السلطة. كان ذلك إيذاناً بانتصار النازية في ألمانيا التي غادرها مان إلى ضواحي زيوريخ في سويسرا.

هاجر مان إلى الولايات المتحدة قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، وشغل طيلة سنوات منصب أستاذ في جامعة برينستون. وقد خاض من منفاه الاختياري ذاك معركته ضد النازية، أكان عبر الصحافة أو عبر الإذاعة، متوجهاً على وجه الخصوص إلى الشعب الألماني الذي خضع طويلاً للتنويم المغناطيسي الجماعي الذي اضطلع به الوحش النازي، وإذا كان لوكاش قد اعتبر مان نموذجاً «أقصى لأولئك الكتاب الناجمة عظمتهم عن كونهم مرايا للعالم»، فلقد كان أدبه في تلك الفترة مرآة للعالم المتمزّق القلق والمرعوب حيال صعود الظاهرة تلك، في العديد من رواياته، ولا سيما **ماريو والساحر** ورائعته **الدكتور فوستوس**.

إلا أن مان الأنسي الديمقراطي، سرعان ما لاحظ أن الرجعية الأميركية تسن من جانبها أسنانها بانتظار أن تحين ساعة الانقضاض على حليفها المؤقت، الاتحاد السوفياتي. وقد أعلن لصحافي سويسري فيما بعد أن



Twitter: @ketab_n

الحرب لم تكن ألقت أوزارها حين بدأ الناس يتحدثون عن شبح حرب جديدة يلوح فـي الأفق.

ضمن هذا الجو، غادر أمريكا إلى سويسرا حيث تيسّر له أن يناضل عن كثب لإعادة توحيد ألمانيا . ألقى محاضرات في الألمانيتين بمناسبة يوبيل غوته عام 1949، كما بمناسبة يوبيل شيللر في العام ذاته. وهو لم يقبل بتصوير فيلم مقتبس من رواية آل بودنبروك إلا شريطة أن تساهم في ذلك مجموعات سينمائية ألمانية شرقية وغربية بصورة مشتركة. وقد كانت سنواته الأخيرة عملاً دائباً لصالح السلام.

إلا أن حياة مان وأدبه لم يسيرا في خط نمو واحد، بل خضعا لانعطافات حادة. فهو لم ينته إلى قناعاته التي تبلورت على وجه الخصوص إبان مقاومته للانحطاط المأساوي الذي عرفته البرجوازية مع صعود النازية، إلا بعد أن مرّ في فترة أولى بنزعة جرمانية هي أبعد ما تكون عن مفاهيم الديمقراطية والتقدم. ولا ننسينّ في هذا المجال تأثره العميق باسمين طالما اعتبر الهتلريون أنفسهم امتداداً لفكرهما، عنينا من جهة شوبنهاور الذي قرأه مان في العشرين من عمره وهو بعد طالب في ميونيخ، ونيتشه من جهة أخرى. أخذ عن الأول تشاؤماً ساحقاً يرى الحياة قساوة والعالم شراً، تشاؤماً له طعم الموت والصليب والقبر، واستخلص منه توجهه إلى الاستنكافية السياسية والالتحاق بالعسكرية المالكة. أما نيتشة فأثّر فيه بسوداويته الساخرة ونزعته الثقافية ونفاذه السيكولوجي، بفن رؤية الإنسان كما هو في حيلته ودناءته، وبالشجاعة التي ترافق ذلك. كما غزاه الموسيقي الكبير فاغنر بسحر موسيقاه القوية ذات الإلهام الشوبنهاوري، وهو سحر علّمه نيتشه أن يميّز فيه العناصر المضطربة والإثارة العاطفية


Twitter: @ketab_n

المسرحية والرأي القبلي الزخرفي الباذخ.

تلقي التأثيرات المشار إليها ضوءاً على اتجاه لديه معاد للديمقراطية لازمة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، اقترن بالتضامن المتحمس مع «قيم» من مثل الإمبراطورية، الجيش، السلطة، وبمعارضة مستمرة «للحضارة» اللاتينية «بالثقافة» الجرمانية. وهو قد دلل في الحرب تلك على «نزعة شوفينية عسكرية مبتذلة وعلى عداء صلف ومتعجرف تجاه كل ما كان يطالب به اليسار والقوى الديمقراطية الألمانية» ـ حسب ما يقول إسحق دويتشر.

إلا أن الحرب ونتائجها، لا سيما الهزيمة المنكرة التي لحقت بالعسكرية الألمانية وبالمطامع الاستعمارية لدى بورجوازية بلاده، ما تبع ذلك من تفجرات ثورية، مع ما صاحبها من إجهاض وقمع، كل ذلك كان كافياً لإحداث انعطافة عميقة في منحاه الفكري والحياتي. فهو تحول نهائياً إلى نزعة ديمقراطية ليبرالية ساعدته في البدء بخوض معركته في وجه قوى الظلام والبربرية قبل أن يتمكن هتلر من انتزاع السلطة بسنوات. وإن في الصراع بين الديمقراطي الأنسي سيتمبريني وتلميذ اليسوعيين نافطا الحامل لاتجاه كاثوليكي يستبق الفاشية في رواية **الجبل السحري** (1924) صورة عن أولى تلك المعركة.

وقد تطور ذلك المنحى وتبلور أكثر مع انتقال الفاشية من مجرد اتجاه أو تيار متنام إلى التعبير عن نفسها على أرض السلطة التي كانت استولت عليها في إيطاليا مع صعود موسوليني، ثم فعلت الشيء نفسه في ألمانيا عام 1933. مذ ذاك أصبح شغل مان الشاغل خوض المعركة ضد انفجار الأهواء الأكثر بربرية وقد أطلقها من القمقم صعود القوى الاجتماعية



Twitter: @ketab_n

التي اعتمد عليها هتلر في صعوده كما في احتفاظه بالسلطة. كان ذلك بالكتابة والنداءات المباشرة، لكن كذلك عبر القصة والأقصوصة. وإن أدب كهولة وشيخوخة مان مطبوع كلياً بصراعه ضد قوى التوحيش والبربرة التي كانت تعمل على تحويل العالم أجمع إلى صورتها ومثالها. ألا يمكن أن نرى في المعاهدة مع الشيطان التي عقدها بطل رواية **الدكتور فوستوس**، الموسيقي أدريان ليفركوهن نموذجاً للحلف الشيطاني الذي أقامته البرجوازية الأوروبية في فترة انحطاطها مع النزعات الأكثر سواداً وإجراماً ودناءة لدى الكائن والمجموعات الإنسانية؟ أوليس «السيد من روما» الذي يحاول عبثاً أن يقاوم التنويم المغناطيسي في أقصوصة **ماريو والساحر** صورة عن المحاولات اليائسة لمواجهة الصعود الفاشي، لكن دون جدوى، لكون تلك المحاولات بقيت في مواقع الدفاع الصرف والسلبية المجردة، ولم تنتقل بقوة إلى معارضة الظلام والشر المتجسدين في وقائع بقوة خير ذات مضمون إيجابي؟

لقد رأى مان في الواقع، منذ عام 1918، كيف أن بعض شرائح الديمقراطية البرجوازية تبدو ناضجة لهيمنة الحثالة، «مستعدة للتحالف معها لإطالة امتيازاتها». وهو رغم انحيازه العميق للبرجوازية، رغم التصاقه الجذري بطبقته، حتى وهو يعارضها، كان يستطيع أن يستكشف بإخلاص حدة المأزق الذي آلت إليه، ولا يرى مخرجاً واضحاً منه، بحيث توصل جورج لوكاش في دراساته عنه إلى استنتاجات جازمة حول توجهات اشتراكية لدى الروائي الألماني العظيم الذي كان حسب تعبيره «ضمير البورجوازية الألمانية». إن الموسيقي أدريان ليفركوهن، بطل رواية **الدكتور فوستوس** يطمح للخروج بالفن من «عزلته الرائعة التي كانت ثمرة لتحرر الثقافة،



Twitter: @ketab_n

لارتقاء الثقافة إلى دور بديل للدين، ولاحتكاكاته العصرية بنخبة مثقفة تدعى «الجمهور» لن يكون لها وجود عما قليل، لا بل لم تعد موجودة، حتى إن الفن سيصبح وحيداً كلياً في مدى قصير، وحيداً إلى درجة الزوال إلا إذا وجد الطريق الذي يقود إلى «الشعب»، أي ... إلى الإنسان».

ورغم أن كلمة الشعب تأتي لديه بين مزدوجين، كدلالة على عدم خروجه الكلي من تأثيرات طبقته، إلا أن شعوره بمأزق تلك الطبقة كان عظيماً، وعظيماً جداً، وهذا ما يلحظه ليركوهن بالذات حين يرى أن الكثير من الناس «بدل أن يهتموا بتعقل بما ينقص على الأرض، لكي تصبح شروط الحياة أفضل، وأن يتدبروا الأمور بهدوء لكي يستتب بين الناس نظام معد بحيث يعطي من جديد مبرراً لحياة النتاج الجميل، ويعيد إليه مكانته بشرف، فإن الإنسان يهرب تلقائياً ويتيه في النشوة الجهنمية، يفقد فيها خلاصه وينتهي في القاذورة».

وهو حين يحاول استشراف خلاص من ذلك المأزق المؤدي بالإنسان إلى القاذورة، لا يجد ذلك إلا في تخطي البورجوازية لذاتها كطبقة نحو التعلّق بأهداب مستقبل تعده طبقة أخرى. لقد كتب في بحثه «غوته ممثل العصر البورجوازي»:

«إن الروح البورجوازية في النظريات الطوباوية التقنية والعقلانية تصب في الشمولية، تصب، إذ أردنا استعمال التعبير بمعنى واسع وغير عقدي، في الشيوعية.. إن البورجوازي ضائع ويفقد التماس مع العالم الجديد الذي في قمة الحمل إذا لم يحزم أمره على الانفصال عن السهولات الإجرامية والأيديولوجية المعادية للحياة التي ما تزال تسيطر عليه، وعلى الانحياز بجرأة إلى المستقبل.. إن العالم الجديد، العالم الاجتماعي، العالم


Twitter: @ketab_n

المنظم، المركز والمخطط الذي سوف تتحرر فيه الإنسانية من الآلام اللاإنسانية غير النافعة والتي تجرح حس شرف العقل، **هذا العالم سوف يجيء**.. سوف يجيء لأنه يلزم أن يخلق نظام خارجي وعقلاني، يتناسب مع المستوى الذي بلغته الروح الإنسانية، أو في أسوأ الحالات، أن ينشأ على قاعدة **انقلاب عنيف**، من أجل أن تستطيع قيم الروح أن تحصل آنذاك من جديد على حق الحياة وعلى خلوص النية على المستوى الإنساني».

إلا أنه إذا كان لوكاش جازماً في اعتباره إن مان البورجوازي حتى العظم قد اختار الاشتراكية حلاً وحيداً لتلافي السقوط في البربرية، فلم يكن إسحق دويتشر على تلك الدرجة من الإيجابية تجاهه. فهو رأى أن رفضه للرايخ الثالث «إنما كان ينم بالأحرى (وفقط) عن نفور البورجوازي النبيل والمثقف من الغوغاء والبروليتاريا الرثة التي انفلتت من كل عقال في ظل الصليب المعقوف». وإذا عدنا في الواقع إلى روايته **الدكتور فوستوس**، فنحن نجد بالفعل أنه تنفتح أمامه رئاية الاشتراكية، لكن ليس كمطمح واضح وصريح، بل كخلاص من المأزق الرهيب الذي وصلت إليه البورجوازية في أقصى درجات انحطاطها مع انتصار النازية. يقول سيرنيوس زايتبلوم، صديق ليفركوهن وكاتب سيرته: «تترتب أفكاري حول سيطرة الجماهير بصورة جديدة، وأنا البورجوازي الألماني أخضع لتجربة اعتبار **هيمنة الطبقة الدنيا كحالة مثالية** عندما أقوم بالمقارنة الممكنة الآن **مع هيمنة حثالة المجتمع**».

لكنه حتى وهو يضع نصب عينيه هذا الاحتمال المنقذ لا يذهب به لأقصى نهاياته، بل يقف موقفاً توفيقياً يطمح إلى التوحيد بين «التصوّر المحافظ للحضارة والأفكار الاجتماعية الثورية، بين اليونان وموسكو..»



Twitter: @ketab_n

وهذا يتطابق في نهاية المطاف مع ما يسمى اليوم بـ «الشيوعية الأوروبية» إجمالاً، كتعبير عن التفاعل بين المأزق المتجدد بحدة متعاظمة للبورجوازية الأوروبية، والانحطاط الفعلي للفكر والنظرية الثوريين على يديّ شريحة حزبية بيرقراطية متباعدة باستمرار عن المصالح التاريخية «للطبقة الدنيا».

## «الموت في البندقية» في نتاج مان

أين تقع أقصوصة «الموت في البندقية» من مجمل هذا السياق؟

كتب مان هذا العمل القصصي المرهف في مرحلة أولى من حياته الأدبية، وبالتحديد عام 1911، في وقت كان لم يحصل بعد الانعطاف في مساره الفكري والإنساني، نحو الديمقراطية والتقدم. إلا أن بالإمكان القول إن الملامح العامة لأدب مان تجد فيه أرضية خصبة وكثيفة. إننا واجدون في هذا النتاج التشاؤم العميق الذي ورثه مان عن شوبنهاور مقترناً بطغيان الموت وهيبة العدم، كما نقع على نفاذ البَصَر وبُعد الرؤيا والرهافة السيكولوجية الخارقة التي كان توماس مان يعجب بها لدى نيتشه، وهي المفاهيم الأربعة الأساسية التي حددت الروح الألمانية عبر الأدب خلال قرون، عنينا: الثقافة، والموسيقى، والبروتستانتية، وحس الواجب.

إن الشخصية المركزية في الموت في البندقية روائي كهل ذو شهرة أوروبية. لكونه بالضبط يتمتع بحساسية فنان وتخطى منتصف العمر فسيكون عرضة لتلك الانحرافات المفاجئة وذلك الهذيان المؤدي إلى الموت. إن الانبهار المميت الذي يمكن أن يمارسه الجمال الجسدي هو الموضوع الذي يعالجه مان في هذه الأقصوصة. «هكذا الجمال هو الطريق التي


Twitter: @ketab_n

تقود الإنسان الحساس إلى الروح، فقط الطريق، وسيلة وحسب، يا صفيري فيدروس». إلا أن الجمال هنا، يقود إلى الاضطراب الرهيب في الروح، إلى فقدان التوازن، إلى الموت. إنه مبدأ انعطافات عميقة في الكائن الإنساني الذي لا يعود يعرف نفسه، ولا يعود يتذكّر ماضيه، إلا ليجحد ذلك الماضي، بما فيه ذاته السابقة وعنفوانها ومقامها، أو ما يسميه لوكاش مبدأ الهيبة. إن غوستاف آشنباخ الذي شعر باشمئزاز عميق من الشيخ المتصابي في بداية سفرته إلى البندقية، لا يعتم أن يسقط في «الخطيئة» ذاتها التي كانت أثارت قرفه في السابق. إن حبه لتادزيو المراهق الجميل، هذا الحب المفاجئ، الحب الصاعق الذي يرافق مشهد الجمال الساحق، يدفعه في نهاية المطاف إلى أنواع التبرّج والتزيّن التي يستعيد بها بعض مظاهر الشباب المزيفة التي طالما استفزته ونفرته. إن الجمال هنا هو الطريق إلى الهاوية، وآشنباخ يسير إليها دون مرد. «ذلك أن الجمال، لاحظ جيداً يا فيدروس، الجمال وحده إلهي ومرئي في آن معاً، وهكذا فبه نتوجه نحو المحسوس. به ينخرط الفنان يا فيدروس الصغير في دروب الروح.... ذلك أنه ينبغي أن تعرف أننا، نحن الشعراء لا يمكننا أن نسلك طريق الجمال دون أن ينضم إلينا ايروس ويأخذ دفة القيادة... **إننا نجحد الهاوية تلقائياً لنعز أنفسنا، لكن أينما استدرنا فهي تجذبنا إليها**». إن الماضي الذي طالما كبح فيه المرء كل جماح وسيطر عليه باسم جملة من المبررات والروادع يبلغ لحظة ينفلت معها من كل عقال، وتنفجر عندها في النفس كافة النزعات المكبوتة والمضغوطة في زوبعة مدمرة مميتة. إن الحلم هنا والرؤيا يُظهران هذا الماضي وقد خرج من قشرته البركانية. لقد تراءت لآشنباخ في عز اليقظة تلك الساعة الرملية القديمة «تلك الآلة الصغيرة سريعة العطب



Twitter: @ketab_n

جداً والهامة جداً، رآها فجأة من جديد كما لو كانت أمامه. كان الرمل المائل للون الصدأ يجري بصمت عبر ثقب الزجاجة الضيّق، وفيما كان يستنفد في التجويف العلوي، تشكّلت هناك زوبعة صغيرة جامحة».

ولقد رأى حلماً، «حلماً رهيباً ـ إذا أمكن إطلاق تسميته الحلم على دراما الجسد والروح تلك التي حدثت دون شك فيما هو نائم نوماً عميقاً، متمثلة بأشكال محسوسة وبالاستقلال الكلي عنه، لكن كذلك دون أن يعي أنه هو نفسه خارج الأحداث. على العكس من ذلك كانت روحه بالذات مسرحها، وكانت تلك الأحداث وهي تهاجمه من الخارج **تحطّم مقاومته**، وتغتصب قوى نفسه العميقة، تزعزع كل شيء وتترك وجوده، البناء المعنوي لحياته بأكملها مدمراً معدوماً».

إن دراما الجسد والروح تلك ستنتهي بدمار آشنباخ وموته. إلا أن الفنان المنتهي هذه النهاية المأساوية هنا بعد انفلات طاقاته المكبوتة وقوى نفسه الجامحة ليس كائناً فردياً، إنه ألمانيا التي ستنفلت فيها قوى جامحة على المستوى الجماعي فيما بعد، فيما تعيش البرجوازية مرحلة انحطاطها، تماماً كما تنبأ ماركس قبل ذلك بعشرات السنين حين قال: «سوف تجد ألمانيا نفسها هكذا ذات صباح على مستوى الانحدار الأوروبي قبل أن تكون عرفت يوماً مستوى التحرر الأوروبي».

***كميل قيصر داغر***



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# 1

بعد ظهر يوم ربيعي من عام **19 ، بدا طيلة أشهر يهدد سلام أوروبـا إلى درجة عالية من الخطورة، كان غوستاف آشنباخ أو آل أشنباخ ـ الذي غدا من حقه إضافة تعبير النبالة هذا مذ بلغ الخمسين من عمره ـ قد غادر شقته في برينزر يجتنستراسي إلى ميونيخ للقيام بنزهة طويلة لوحده. إن الكاتب الذي أرهقته صعوبات عمل صباحي كان عليه أن يبذل له بالضبط انتباهاً دائماً، إحترازاً وعناية لا متناهية، إرادة لجوجاً وصارمة، لم يستطع حتى بعد الغداء أن يضع حداً في ذاته لانطلاقة الأوالية الخلافة، تلك الـ Animi Continuus Motus* التي حدّد بها شيشرون البلاغة، ولم يعرف في قيلولته الرقاد مجدد القوى الذي أصبح ضرورة يومية بالنسبة إليه، بعد أن غدا الإنهاك يأخذ بتلابيبه أسرع فأسرع. لذا فقد سعى بعد تناول الشاي مباشرة إلى الهواء الطلق، على أمل أن تعيد إليه النزهة حيويته وتعود عليه بأمسية عمل نشيطة.

كـان ذلك في مطلـع أيـار، وقـد أعقبت أسـابيع بـردٍ مشبـع

* باللاتينية في النص (المترجم).



Twitter: @ketab_n

بالرطوبة مفاجأةُ صيفٍ كاذب. كانت الحديقة الانكليزية Garten Englischer، وإن لم تتزين بعد بغير أوراق ندية، تستروح العاصفة كما في شهر آب، وقد طالعت آشنباخ في ضاحية المدينة الغاصَّة بالسيارات والمشاة. راقب أشنباخ لفترة، في مطعم أوميستر الذي كان يؤدي به إليه معابر أقل فأقل ارتياداً، حركة الناس فوق الرصيف الذي توقفت على امتداده بعض العربات... عند غروب الشمس، كان قد خرج من المنتزه وعاد عبر الريف. ولكونه شعر بالإنهاك وبأن العاصفة وشيكة ما فوق فوهرينغ، فقد انتظر في مقبرة الشمال الحافلة الكهربائية التي تعود به مباشرة إلى المدينة.

حدث أنه لم يكن ثمة أحد في المحطة أو على مقربة منها. لا مركبة واحدة على قارعة طريق فوهرينغ آو في شارع أونجر اللذين كان بلاطهما وخطوطهما الحديدية اللامعة تضيع في السكينة. خلف حظائر متعهدي النُّصب التذكارية، كانت الصلبان والشواهد والأضرحة تؤلف ما يشبه مقبرة أخرى، إلا أنها غير مسكونة. أما في مقابلها، فكان المصلّى الذي يباركون فيه الموتى، يخلد إلى الصمت في انعكاس أشعة النهار عند المغيب. على واجهته التي تزينها صلبان إغريقية ورسوم كهنوتية بألوان صافية، كانت تنتظم بأحرف من نضار كتابات تناسقية، كلمات من الكتاب المقدس عن الحياة الأخرى. ـ «سيدخلون بيت الله» ـ «فليستمدوا النور الأبدي» ـ ولقد وجد آشنباخ إبان دقائق الانتظار تلك تسلية رصينة في فك الرموز. كان نظره يضيع فيها، ويستسلم فكره لصوفيتها الشفافة، حين انتشلته من أحلام يقظته، وطبعت أفكاره بمجرى مختلف تماماً، رؤية رجل غريب تحت الرواق،



Twitter: @ketab_n

فوق بهيمتي سفر الرؤيا اللتين تحرسان درج المدخل.

لم يدر آشنباخ إذا كان طلع من داخل المصلَّى عبر الباب البرونزي أو إذا كان أتى من الخارج فتسلق الدرجات دون أن يلفت ذلك انتباهه. كان يميل بالأحرى إلى الاحتمال الأول، دون أن يتوقف عنده ملياً. كان ذلك الرجل ذو القامة المعتدلة، الهزيل وغير الملتحي، صاحب الأنف الأفطس للغاية، ينتمي إلى المثال الأصهب من الرجال، له منه السحنة الحليبية والبشرة المبقعة. بديهي أنه لم يكن بافارياً: كانت قبعته مانيلية على الأقل، ذات أطراف فضفاضة مستقيمة، تضفي عليه طابعاً أجنبياً، مسحة من يأتي من بلدان غريبة. بالمقابل، كان الجراب الجبلي المتدلي من كتفيه هو الذي يُرى بالضبط في بافير. كانت بزة الرياضة المائلة إلى الاصفرار التي يرتديها تبدو من اللودن*. يمسك بيساره المستندة إلى ثنية فخذه معطفاً رمادياً للوقاية من المطر، فيما يحمل بيده اليمنى عصاً محددة مغروزة في الأرض، يستند إلى مقبضها بوركه مصلباً قدميه الواحدة على الأخرى. كان رأسه المنتصب يُبرز من القميص المفتوح عنقاً طويلاً وجامداً تنفر فيه جوزة العنق. كان يتحرى الأفق بعينين فاقدتين اللون، تظللهما أهداب صهباء تعترضهما عمودياً ثنيتان ماضيتان تتناسبان بصورة مدهشة مع الأنف المرفوع. هكذا ـ وربما لم يكن يبدو متشامخاً إلى ذلك الحد إلا لأنه كان واقفاً في أعلى الدرجات ـ كان في وقفته شيء ما متصلف، متسلط، جسور، لا بل فتاك. ذلك أنه، سواء قطّب وجهه لأن الشمس الغاربة كان تبهره، أو كان في الأمر

* نسيج قطني سميك (م).



Twitter: @ketab_n

تشويه دائم للملامح، فإن شفتيه اللتين كانتا تبدوان جد قصيرتين، كانتا تفتران كلياً عن أسنان طويلة بيضاء يبرز صفّاها بين اللثتين.

ربما ضمَّن آشنباخ نظرته نصف الشاردة، نصف المتفحّصة، التي تأمل بها الغريب، شيئاً من التطفّل. لاحظ فجأة أن هذا كان يحدق فيه بدوره، وفي الواقع بصورة جد عدائية وبطريقة مصممة على المضي في التحدي وقسر نظر الآخر على الانكفاء، إلى درجة أن آشنباخ الذي ضايقه ذلك جداً، أشاح بوجهه وطفق يمشي على امتداد الحباك، ممتنعاً مؤقتاً عن الالتفات إلى الرجل. بعد قليل، كان قد نسيه تماماً. إما أنه لدى ظهور الغريب، صدمت خياله رؤى سفر، أو أن تأثيراً جسدياً ومعنوياً كان في الدق، فأحس في داخله، وهو مندهش، ما يشبه اتساعاً غريباً، نوعاً من القلق الشارد، من الرغبة الصبوية لقلب متعطش للبعد، إحساساً جد حاد، جد جديد، منسياً من زمن جد بعيد، بحيث توقف ويداه خلف ظهره وعيناه مطرقتان، مسمَّراً إلى الأرض، يتفحّص طبيعة انفعاله وموضوع ذلك الانفعال.

كان ذلك هو الرغبة في السفر، لا شيء أكثر. لكن رغبة مشبوبة استولت عليه فجأة، واهتاجت حتى الهلوسة. كانت رغبه تتخذ بعداً رؤيوياً، فيما كان خياله، الذي لم يستقر منذ عمله الصباحي، يخترع زخرفة لكل من الألف معجزة، من الألف هول أرضي، التي حاول بغتة أن يتمثلها: كان يرى ـ كان يراه ـ منظراً، مستنقعاً مدارياً تحت سماء مشبعة بالأبخرة، دبقة، مفرطة الحيوية، مخيفة، نوعاً من الخواء البدائي المصنوع من الجزر والبحيرات الساحلية والشُّعب النهرية التي تجحف طمياً. كان يرى من طرف لآخر في الأفق، أشجار نخيل ذات جذوع


Twitter: @ketab_n

موبرة تبرز من بين غابات سرخس غزير، من هاوية نباتية لنباتات كثيفة الورق، منتفخة، متفتحة في ازهرارات خارقة. كان يرى أشجاراً ذات أشكال مشوهة غريبة تمد في الفضاء جذوراً تعود فتمتد في الأرض، تغوص في ظل وفي ألق محيط ذي أمواج خضراء مزرقة ومُسَمَّرة في مواضِعها، حيث بين زهور عائمة بيضاء كالحليب، وعريضة كقصاع، كانت عصافير غريبة ذات مناقير شوهاء تحط على القيعان، عنقها بين جناحيها، عيناها منحرفتان ونظرتها جامدة. كان يرى حدقتين تلمعان لنمر كامن بين القصبان المعقوقدة لدغل خيزران. وأحس بقلبه يخفق خفقاً أشد، من الرعب ومن الرغبة الغامضة. ثم اختفت الرؤيا. فتابع آشنباخ، بعد أن نفض رأسه، نزهته على امتداد الحباك والنصب الجنائزية.

لم يكن نظر إلى النزهات، على الأقل مذ أصبح بوسعه اكتشاف العالم، الاستفادة منه والتمتع به على هواه، إلا كتدبير صحي كان عليه اتخاذه مكرهاً هنا وهناك. منشغلاً جداً بالمهام التي كانت تطرحها عليه ذاته والذات الأوروبية، مثقلاً جداً بواجب الإنتاج، قليل الميل جداً إلى تسلية النفس من أجل تذوّق دغدغة عالم الظواهر كهاوٍ، كان قد اكتفى حتى ذلك الحين بسهولة بالصورة التي يمكن لكل واحد أن يأخذها عن سطح الكرة دون أن يتحرّك كثيراً من دائرته، ولم تخامره أبداً تجربة مغادرة القارة. ثم إن حياته كانت بدأت تميل إلى الزوال. إن تخوّف الفنان من عدم الانتهاء، همّ التفكير باحتمال توقف الساعة قبل أن يحقق نفسه ويكمل عطاءه ـ كل ذلك، متحولاً إلى أكثر من فراشة سوداء يطردها المرء بيده ـ جعله يوقف بصورة شبه كليه الحدود


Twitter: @ketab_n

الملموسة لوجوده في تلك المدينة الجميلة التي غدت مدينته، وفي زاوية الريف القاسي حيث أقام في الجبل، وحيث كان يقضي فصول الصيف الممطرة. إن عقله وتحكمه بذاته الذي تمرّس به منذ صباه، سرعان ما كانا يلطفان ويضبطان تلك النزوة التي استولت عليه بصورة متأخرة جداً ومباغتة جداً. كانت نيته قبل ذهابه إلى الريف أن يصل بالعمل الذي نذر له حياته إلى نقطة معينة. إن فكرة رحلة بعيدة تصرفه عن عمله طيلة أشهر عديدة كانت تبدو جد عابثة ومعاكسة لتصميمه، لذا ما كان عليه أن يتوقف عندها أبداً. ومع ذلك كان يعرف لماذا أخذ هكذا على حين غرة. حاجة غريزية للفرار. تلك كما اعترف لنفسه حقيقة ذلك الحنين إلى البعيد، إلى الجديد، الشبيه بتلك الرغبة المتعطشة للشعور بالحرية، بإلقاء الحمل عن الكاهل، بالنسيان ـ الحاجة إلى الإفلات من عمله، في المكان الذي كان يخدمه فيه كل يوم بقلب لا يلين وشغف بارد. كان يحب في الواقع خدمته، ولقد أصبح تقريباً يحب النضال المثير للأعصاب والمتجدد كل يوم الذي تخوضه إرادته الصلبة، المعتزة، المجربة، ضد ملل متنام كان على الجميع أن يجهلوه، ولم يكن ينبغي أن يفضحه أي تراخ، أي علامة تهاون في إنتاجه. لكن كان يبدو محقاً في عدم توتير القوس كثيراً وعدم الإصرار على خنق اندفاع متدفق بحيوية وعفوية فائقتين. فكر في عمله، في المقطع الذي توقف عنده اليوم كما البارحة. كان يبدو أنه لا ينبغي للمقاومة أن تستسلم حيال عناية صبور، ولا أن تهزمها مهارة يدوية. عاود تفحصه، محاولاً تارة أن يقطع العقدة، طوراً أن يحلها، إلا أنه أرخى قبضته رغماً عنه وقد سرت فيه قشعريرة. لم يكن ذلك عائداً لصعوبة خارقة واجهته، كل



Twitter: @ketab_n

ما في الأمر أنه كانت تشله الوساوس والكرب وإزعاجات تطلُّب كان قد بلغ حداً لا يمكن معه لأي شيء أن يرضيه. لقد اعتبر منذ أيام مراهقته أن عدم الرضى هو جوهر الموهبة وأساسها الحميم. حبّاً به كبح عاطفته، منعها من الاحتدام، لأنه كان يعرفها لا مبالية، ميالة للاكتفاء بما هو بين بين، بكمال جزئي. هل كانت رهافة الحس المستعبدة تنتقم إذن بالتخلي عنه، برفض الانطلاق بفنه أبعد، برفض إعطائه أجنحة، وبأخذها معها كل المتعة، كل نشوة إعطائها شكلاً، التعبير عنها؟ هذا لا يعني أن ما يكتبه كان رديئاً. هنا كان يكمن على الأقل امتياز العمر، بحيث أنه كان يشعر بنفسه كل لحظة ودون عناء واثقاً من جدارته. إلا أن تلك الجدارة التي كانت تحييها الأمة لم تكن تمنحه أي فرح، ولقد كان يشعر أن شيئاً ما ينقص عمله بصورة واضحة، شيئاً لم يعد يحمل طابع نزوة متحرقة للتلاعب، متدفقة من متعة الكتابة، ومولدة لمتعة القراءة، أفضل مما قد يفعل الغنى والعمق. كان يخشى الصيف في الريف، والوحدة في البيت الصغير، مع الخادمة التي كانت تحضر طعامه والخادم الذي يقدمه له، كان يخاف الوجوه المألوفة للجبال التي كانت ذراها ومنحدراتها ستعاود التحلّق حول شخصه المبطئ في العمل والمقطّب الجبين. كان يلزمه استرخاء، قليل من اللامتوقع، من التسكع، هواء عرض البحر الذي يرطب دمه، من أجل أن يكون الصيف محمولاً، ويعطي ثماراً. سوف يسافر إذن ـ فليكن. ليس بعيداً جداً، ليس بالتحديد حتى بلد النمور. سيقضي ليلة في عربة نوم، وبطالة تمتد ثلاثة أسابيع أو أربعة في محطة كوسموبوليتية في الجنوب الضاحك.



Twitter: @ketab_n

هكذا كان يمضي فكره فيما يقترب ضجيج الحافلة الآتية عبر شارع أونجر. فيما هو يصعد، قرّر أن يخصّص السهرة لدراسة خرائط وأدلة. على الموقف، خطر له الرجل ذو القبعة من جديد، ذلك الرفيق لبرهة لم تكن لا مبالية. تفقّده بنظراته، لكنه لم يستطع التأكد إذا كان ما يزال هناك. لم يكن يمكن اكتشافه، سواء في المكان الذي وقف فيه منذ حين أو في الساحة أو في الحافلة.


Twitter: @ketab_n

# 2

إن مؤلف الحكاية الشفافة والقوية عن الحياة الملحمية لفريدريك ملك بروسيا، الفنان الصبور الذي اجتهد طويلاً في روايته «مايا» أن يشبك أقداراً مختلفة بما يشبه وشياً يتجمع فيه ألف شخص في ظل فكرة، ذلك الذي تصورت موهبته الجبارة قصة بائس، وكشفت للشباب العارفين بالجميل أن ثمة ما وراء الهاويات المكتشفة أخلاقاً ثابتة ممكنة، وأخيراً (وهنا تتوقف لائحة مؤلفات كهولته) مؤلف **الفن والروحانية**، ذلك المبحث الممتلئ وجداً، الذي أمكن أن يوازي نقّاد حصيفون بين طاقته التنسيقية ومعارضاته الفصيحة ومبحث شيللر، حول **الساذج والعاطفي** ـ إن آشنباخ إذن قد ولد في ل. مركز مقاطعة من أعمال سيليزيا حيث كان والده يشغل وظيفة عليا في القضاء. كان أجداده، من ضباط وقضاة وإداريين، قد عاشوا في خدمة الملك والدولة حياة متكلفة، لائقة وبين بين. ما كان عندهم من روحانية تجسد يوماً في شخص واعظ. في الجيل السابق، كانت والدة الكاتب، وهي إبنة قائد جوقة كنيسة تشيكي، قد أدخلت في العائلة دماً أكثر حرارة. منها استمد ملامح العرق الأجنبي التي كان الناس يلاحظونها



Twitter: @ketab_n

في شخصه. إن مزيج ضمير مهني صارم وتشوشات، اضطرامات عصبية، جعل منه فناناً، هذا الفنان. كان كل شخصه معلقاً على فكرة المجد، دون أن يكون ناضجاً حقاً قبل الأوان، لذا بدا باكراً، حيال نبرته الحازمة والشخصية والأخاذة، أنه سيؤثر على الجمهور بنجاح. ما أن تخلص من قيود المدرسة حتى كان يشهر اسمه. كان بعد ذلك بعشر سنين، قد تعلّم وهو في حجرة عمله أن يلعب دور شخصية مرموقة، أن يدير شهرته ويجيب على الرسائل بصيغ مختصرة ـ لفرط ما يشعر من ينجحون ويوحون بالثقة أنهم منهكون ـ دون أن تفتقد اللطف والتعبير. حين بلغ الكاتب الأربعين من عمره، وفي حين كان كده المضطرب يكلفه جهداً كثيراً، كان عليه أن يفض كل يوم رسائل تحمل طوابع كل بلدان العالم.

كانت موهبته، التي تقف على مسافة واحدة من الغريب والتافه، من النوع الذي يجتذب نحوه في الوقت ذاته رضى الجمهور الواسع وإعجاب الجهابذة هذا الذي يلزم الفنان.

لذا فقد وجد نفسه منذ خطواته الأولى مضطراً إلى تلبية كل الرغبات، حتى الأسمى منها، فلم يعرف أوقات الفراغ، العفوية اللامبالية لسن العشرين. في الخامسة والثلاثين من عمره، وقع مريضاً في فيينا، وبما أنه كان على لسان الناس، فقد أدلى أحدهم بذكاء بهذه الملاحظة: «عاش آشنباخ على الدوام هكذا» ـ وأبدى القبضة الشمال مشدودة ثم أضاف: «ليس أبداً هكذا»، وترك يده اليمنى تتدلى بلا مبالاة على ذراع المقعد. كانت ملاحظته في محلها. كان لشجاعة العيش على هذا المنوال قيمتها من جهة أخرى، ولا سيما أن آشنباخ لم يتمتع


Twitter: @ketab_n

ببنية صلبة، ولم يكن بطبيعته الناحلة مولوداً للبذل بقدر ما كان منذوراً له.

في طفولته، نصح الأطباء أهله بعدم إرساله إلى المدرسة، مما دفعهم إلى تثقيفه في البيت. ومع أنه كبر وحيداً، دون رفاق، فقد وعى باكراً أنه ينتمي لجيل لم تكن تندر فيه الموهبة، بل الصحة التي تحتاج إليها الموهبة للتفتح ـ جيل سرعان ما يستنفد فنانوه طاقتهم الإبداعية ويتلفون باكراً. لكن كلمته المفضلة كانت «الصمود». لم يطمح في قصته «فريدريك الكبير» إلى شيء آخر غير تمجيد هذا الواجب الذي كان يبدو له أن أي فكرة فضيلة منفعلة وفاعلة تتبلور فيه. كان يتمنى كذلك بحرارة أن يعيش طويلاً، لأنه كان مقتنعاً على الدوام أنه يكون وحده فناناً عظيماً، كلياً ومحترماً حقاً ذلك الذي قيّض له أن يمارس قدرته الإبداعية وأن يصور الإنسان في كل أطوار حياته.

بما أنه كان عليه أن يحمل أعباء الموهبة، على كتفين ناحلتين، ويريد الذهاب حتى آخر الشوط، فقد كان بحاجة قصوى إلى الانضباط ـ ولحسن الحظ فالانضباط كان في دمه من جهة أبيه. في الخمسين، في الأربعين من عمره، وحتى في سن أكثر فتوة، في سن يبدد فيه آخرون أنفسهم، يفرطون بالحماس، يؤجلون بهدوء تنفيذ مشاريع كبرى، كان هو يستيقظ قبل الفجر. ينضج جذعه بالماء البارد، وأمام مخطوطته المحاطة بشمعدانين من الفضة تشتعل فيهما شمعتان كبيرتان، كان يقدم للفن، بقلب ورع، وخلال ساعتين أو ثلاث، ذبيحة القوى المجمعة إبان النوم. أما كان ينبغي عذر أولئك الذين، لجهلهم به، نظروا إلى كون روايته «مايا» أو إلى جدرانيات الحياة الملحمية لفريدريك الكبير



Twitter: @ketab_n

كما لو كانت أعمالاً تدفقت دفعة واحدة، فيما تم بناؤها في الواقع يوماً فيوماً، لم ترتفع إلى علاها إلا تحت ضربات وحي تكررت ألف مرّة، ولم تتفوّق وتبلغ ذلك الحد من الكمال إجمالاً وتفصيلاً إلا لأن المؤلف انكب سنوات على النتاج ذاته، مكرساً له ساعات كاملة تؤاتيه فيها القوة والنعمة، تحدوه إرادة وصلابة تقارنان بإرادة وصلابة فاتح مسقط رأسه سيليزيا.

من أجل أن يفعل عمل عقلاني رفيع في الجمهور الواسع، مباشرة وبصورة عميقة، ينبغي أن يكون ثمة قرابة ـ لا بل تماثل بين قدر المؤلف الشخصي والقدر الغُفل لجيله. لا يعرف المعاصرون لماذا يهللون لعمل فني. هل هم جهابذة؟ كلا. إنهم لا يريدون أن يكتشفوا فيه ذلك القدر من الصفات إلا لتبرير محاباتهم. في الواقع أن تلك المحاباة تستند إلى خفايا، إنها تعاطف. كان آشنباخ قد مرّر هذه الملاحظة التي تقول إن أي عظمة موجودة تقوم على الإجابة بـ «وإذا كان!» في شكل تحدٍّ بوجه الألف عائق التي يشكلها الغم، الكدر، الفقر، الاستسلام، سرعة العطب، الشر والشغف. كانت تلك أكثر من ملاحظة، كانت تجربة حياته، لا بل صيغتها، كانت نجاحه، مفتاح نجاحه. ما الذي يدهش مذ ذاك في أن تكون كذلك موقفاً وملمحاً عميقاً لشخصياته الأكثر تعبيراً؟

إن محللاً ثاقب النظر يلاحظ للحال أن هذا البطل من نوع جديد، الذي كان يتجسّد دورياً في كل من الوجوه المفضلة لدى الروائي، كان يمثل نموذجاً مثقفاً ورجولياً للمراهق، المعتصم بحيائه، والصار بأسنانه، فيما تخترق سيوف وسهام جسده الجامد. كانت الكلمة جميلة،



Twitter: @ketab_n

لطيفة ودقيقة أيضاً وإن كانت تتخذ بقوة مظهر الملاحظة العابرة. لأنه، أن ينتصب المرء في وجه القدر، ويحتفظ بلطافته وسط العذاب، ليس مجرد انفعال، بل هو فعل وانتصار إيجابي. وإن صورة القديس سيباستيان هي أجمل رمز، إن لم يكن للفن عموماً، فعلى الأقل لهذا الفن. كان يجري التعرّف عبر القصة الخيالية في روايات آشنباخ إلى التجسدات المتتالية هذه: الإنسان الذي يكبح نفسه ويتمتع بلباقة إخفاء المرض الذي يتآكله، والدمار الفيزيولوجي الذي يصيبه، عن أعين الناس إلى آخر لحظة. ذلك الذي فيما يؤجج الفسق الصفراوي لأعضاء رديئة، يعرف أن يستخلص من النار الكامنة فيه شعلة نقية، وأن ينقل بزهو إلى صعيد الجمال البشاعة التي انطلق منها. ذلك الآخر، الشاحب والواهن الذي يستمد من بالوع الروح الحارق ما يلزم من القوة ليدفع شعباً كاملاً معتداً بنفسه إلى الارتماء عند أسفل الصليب، على قدميه. كذلك هذا الآخر الذي يضع نفسه، وهو يبتسم، في خدمة شكل صارم وفارغ. ذلك الذي تنهكه حياته الكاذبة والخطرة، والذي يستهلكه منذ ولادته الفن والحاجة إلى خداع الآخرين: إن منظر أقدار على تلك الدرجة من التعقيد يؤدي بنا إلى التساؤل إذا كانت وجدت بطولة غير بطولة الضعف أو إذا لم يكن نموذج البطل هذا، في كل حال، نموذج بطل عصرنا على وجه التحديد؟ كان غوستاف آشنباخ شاعر كل أولئك الذين يشتغلون على حد الإنهاك التام، أولئك الرازحين، المستهلكين تماماً ومايزالون واقفين، أخلاقيي البطولة أولئك، السريعي العطب بطبيعتهم والمفتقرين إلى السهولة، الذين ينجحون، بفضل إعمال إرادتهم وبناء على توفير حكيم لقواهم، في أداء



Twitter: @ketab_n

أعمال عظيمة، ولو لفترة من الزمان. ليسوا قلة، إنهم أبطال عصرنا. ولقد كانوا جميعهم يتعرّفون على أنفسهم في نتاجه، كانوا يجدون فيه ذاتهم مثبتة، ممجدة بصورة غنائية، ويعترفون له بالجميل، يبشرون به.

كان قد شارك في اندفاعة القرن الفتية والقاسية، ولم يخشَ، مدفوعاً بها، الكبوات والانحرافات. استسلم جهاراً للشر المعروض دون رهافة وبلا روية في مقالاته وكتاباته. لكنه كان قد بلغ تلك الكرامة التي أكد أنها تثير بمهمازها منذ الأزل الموهبة الحقيقية، ويمكن القول إن تطوره لم يكن إلا صعوداً نحو ذرى تسلقها لفرط المنهج، وهو يتصلب، متخطياً عوائق الشك والهزء.

إن حيوية وغنى الأشكال الفنية التي تتوجه إلى الأحاسيس دون أن تلزم الروح، يأسران الجمهور البورجوازي، لكن الشبيبة المشغوفة والمطلقة لا تتعلق إلا بما هو إشكالي، ولقد كان آشنباخ مطلقاً وإشكالياً كأي مراهق آخر. برهن على كونه عقلياً صرفاً وحرفياً. جعل من المعرفة وسيلة للصوصية، أنفق دخله مسبقاً، دنس أسراراً مقدسة، شبه الموهبة، خان الفن ـ وفيما كانت خيالاته تتعهد قراء يحبون حباً ساذجاً، تحييهم، تبنيهم، كان عيب من عيوب الكهولة قد جعله يدع الشباب المتدلي من شفتيه يتفوه بكلام ماجن حول الطبيعة الملتبسة للفن والفنانين. أغلب الظن أنه لدى الرجل ذي القدر والأصالة لا شيء ينفلّ بصورة أسهل وأحسم من ذوق المعرفة الذي يلسع ويثير ويترك طعم المرارة. ومن المؤكد أن إرادة الشباب، الصارمة والكئيبة، الذهاب إلى آخر حدود المعرفة، ليست شيئاً قرب ذلك التصميم العميق لسن الرجولة حيث الفنان الذي صار ممتلكاً ناصية فنه يقول لا للمعرفة، ينحّيها، يتخطاها



Twitter: @ketab_n

مرفوع الرأس، إذا كان من شأنها أن تضعف الإرادة، وتثبط الهمة للعمل، أو حتى أن ينتزع من الشغف عظمته. ما كان بائسه المشهور غير انفجار قرفٍ في وجه «نفسانوية» العصر الفاقعة متجسّدٍ في الذات الرخوة والغبية لذلك الشخص المشبوه الذي له سلوك الزحافات، الذي يحسم أمره بدفع زوجته إلى أحضان فتى جميل، نتيجةً لعجز، لنقيصةٍ، لتذبذب أخلاقي، والذي يعتقد الفظاظات مسموحاً بها، بحجة العمق؟ إن قوة التعابير التي كان يستهجن بها ما هو جدير بالذم كانت تبشر بإرادة إنكار كل أخلاق غير أكيدة، كل تعاطف مع الهاويات، إرادة التخلي عن الاسترخاء، عن هذه الشفقة الرخوة التي تجعل المرء يقول إن فهم كل شيء يعني العفو عن كل شيء: كانت قد اكتملت في ذلك العمل «معجزة العفوية المستعادة» التي سوف يلح عليها فيما بعد في أحد حواراته، بنبرة لها مسحة السر الخفي. أي توافق عجيب! مع «انبعاث» الروح هذا ـ هل كانت الصرامة، الانضباط المستعاد سبباً في ذلك؟ ـ كان ذوق الجمال يتخذ لديه حيوية جديدة، شبه مسرفة، وكان المرء يجد في نتاجه حس الرزانة الأستقراطي هذا، حس البساطة، نقاوة الأشكال، ذلك الأسلوب الكلاسيكي جهاراً وعن سابق تصميم، الذي ما انفك يميزه مذ ذاك. لكن أليس اتخاذ موقف بهذه الصلابة ما وراء المعرفة، خنق الفضول الثقافي المزعج المضني، هو كذلك إرجاع الكون والروح إلى بساطة جد بسيطة وإرجاع قدرة أخرى للشر لما هو ممنوع، لما هو مختل؟ والأسلوب بالذات ، أليس له وجه مزدوج؟ أليس في الوقت ذاته أخلاقياً وغير أخلاقي ـ أخلاقياً من حيث هو يرتبط بنظام ويصوغه، لكن كذلك غير أخلاقي لا بل



Twitter: @ketab_n

مضاداً للأخلاق، من حيث هو يفترض بطبيعته اللامبالاة حيال كل أخلاقية ومن حيث اتجاهه الأساسي حصر الأخلاقية، إلحاقها بطغيانه المتعالي والمطلق؟

زد على ذلك أن التطوّر هو الخضوع للحتمية، ولا نتخيّل إطلاقاً فناناً يقدّم الحرفة ذاتها إذا كان له التعاطف وثقة الجمهور الواسع السلبية، أو إذا كان يمضي وحيداً، دون ألق المجد والواجبات التي يخلقها. فقط أولئك المنذورون لحياة تشرّد دائمة يبتسمون ويجدون تافهاً أن يروا صاحب موهبة يفلت من الفجور، ينتقل من النغفة إلى الكائن المكتمل، ولا يعود يوافق على تلقائية الروح، يقدر الوضع، يجده معبِّراً، يتقوقع في عزلة أرستقراطية ويخوض فيها، من دونما نجدة، المعركة الأليمة الشرسة التي تؤدي إلى الأمجاد، إلى السلطة. ثم أي لعبة، أي تحدٍّ، أية متعة في أن يشتغل المرء هكذا لذاته من حيث هو فنان! مع مرور السنين، أصبحت كتابات آشنباخ تتسم بشيء من الحذلقة، من الرسمية. شيئاً فشيئاً صار أسلوبه يتجرّد من زخرفه، لم نعد نجد فيه الجسارات الدفاقة، الغرابة، دقة المراحل الأولى، أصبح يطرح نفسه كمثال، يجعل من نفسه قاعدة، ينقح كتاباته وفقاً للتقليد، أصبح محافظاً، شكلياً لا بل حِكَميّاً، وفيما كان يشيخ، كان يستبعد من لغته كل تعبير مبتذل، كما يقال عن لويس الرابع عشر إنه كان يفعل. في تلك الفترة بالذات، أدخلت الإدارة الجامعية صفحات مختارة من نتاجه في كتب القراءة المقررة للمدارس. كان تدبير كهذا يرضيه عميقاً، وقد امتنع عن رفض لقب النبالة الذي أراد الامبراطور الشاب أن يكافئ به لدى تسلمه العرش مؤلف «فريدريك الكبير».


Twitter: @ketab_n

بعد سنوات من التشرّد، وعدة محاولات للإقامة حيناً هنا وطوراً هناك، استقر باكراً في ميونيخ، وعاش فيها محاطاً بالاحترام البورجوازي الذي يتفق للمثقف أن يتمتع به في بعض الحالات. ولما كان تزوج، وهو شاب،ابنة أحد العلماء، فقد عرف فترة قصيرة من السعادة التي وضعت حداً لها وفاة زوجته. بقيت له ابنة كانت قد تزوجت. لم تنجب له امرأته ولداً ذكراً.

كان غوستاف آشنباخ ذا قامة مائلة إلى القصر، أسمر، حليق الوجه كلياً. كان رأسه يبدو قوياً إذا قورن بجسده الرهيف. وكان شعره المردود إلى الوراء، المبعثر عند أعلى الرأس، الكثيف والأشيب عند الصدغين، يحيط بجبين عال متغضن، بحيث يعتقد المرء أنه مغطى بالندوب. أما النابض المذهّب لعدسات غير محاطة بدوائر فيحز أنفاً أقنى ومتجمعاً عند قاعدته. وتنغلق شفتاه عادة برخاوة أو تتقلصان مضيقتين فجأة فمه الواسع. كان خداه الهزيلان محفورين بأثلام، فيما يرى الناظر إلى ذقنه المحكم غمازة. كما لو أن القدر أنشب في ظروف خطيرة مخلبه في تلك الهيئة المنحنية طوعاً بتعبير ألم، فيما لم تكن تدين إلا للفن بنموذج مجسم يعود عادة لطوارئ حياة مضطربة. من هذا الجبين انبثقت الردود السريعة المشرقطة في محادثات فولتير وفريدريك الثاني حول موضوع الحرب. هاتان العينان اللتان كانت تند عنهما عبر النظّارة نظرةٌ عميقة ومتعبة، قد اكتشفتا الجحيم الدامي لعربات إسعاف حرب السبعِ سنوات. إن تمجيد الحياة الذي يقدمه الفن للأشياء، إنما يمنحه أيضاً للفنان الخلاق. يمنحه سعادة تمضي أكثر إلى الأمام، شعلة تحرق أسرع. يحفر في وجه المتعبّدين الورعين رسم مغامرات ذهنية، أوهام،


Twitter: @ketab_n

وحتى لو عاشوا كما في عزلة الدير، فهو يمنحهم على مرّ الأيام، إلى درجة نادرة حتى بالنسبة لامرئ عيّاش، أعصاباً مصفّاة، مرهفة، دائمة التعب وفي يقظة دائمة...



Twitter: @ketab_n

# 3

بعد النزهة الغريبة التي قام بها الروائي، اضطر إلى البقاء أسابيع في ميونيخ لضرورات عمله، لكنه كان مستعجلاً للرحيل. وأخيراً، تمكن في منتصف شهر أيار من إعطاء الأمر بإعداد منزله الريفي ليحل فيه في الشهر اللاحق، ثم استقل القطار الليلي إلى مدينة تريست. لم يتوقف إلا يوماً واحداً في تلك المدينة، ففي الغداة ركب السفينة إلى بولا.

كان يبحث عن العلامة الغريبة، عن الاغتراب، وهما شيئان سهلا المنال. إستقر في جزيرة في البحر الأدرياتيكي تم تحديثها منذ وقت قصير، قرب ساحل إيستري. كان يعيش فيها فلاحون يرتدون أسمالاً جذابة ويتكلمون لهجة لا تفهم منها كلمة، ويقع فيها المرء على شواطئ صخرية مقطعة من جهة عرض البحر. لكن المطر كان يسقط، وكان الجو ثقيلاً، والفندق عامراً ببورجوازية صغيرة نمساوية منغلقة على الأجانب، ولم يكن الساحل يتمتع بتلك البلاجات الرملية الرخوة التي وحدها تجعلك تتآلف مع البحر. كل ذلك كان يتركه كئيباً، يفقده الشعور الذي يحسّ به المرء حين يواتيه الحظ. ثمة قلق، شيء ما كان يدفعه للرحيل دون أن يعرف إلى أين. كان يدرس موعد سفر



Twitter: @ketab_n

المراكب، يستجوب الأفق، وفجأة ـ كيف لم يفكر بذلك من قبل؟ـ عرف إلى أين ينبغي أن يمضي. إلى أين يذهب المرء عندما يريد في وقت سريع أن يتملص من العادي، يعثر على ما لا مثيل له، على المعجزة الأسطورية؟ كان يعرف إلى أين. ما الذي كان يفعله هنا؟ لقد أخطأ. كان نوى الذهاب إلى هناك. لم يتردد، بل أعلم الفندق بنيته الرحيل. لم يمر خمسة عشر يوماً على وصوله إلى الجزيرة الخادعة حتى استقل زورقاً في صباح ضبابي وعاد سريعاً إلى الميناء الحربي، وهو لم يتوقف هناك إلا لكي يجتاز حالاً العبّارة التي قادته إلى جسر المركب المبلّل المتأهب للانطلاق إلى البندقية.

كان مركباً إيطالياً أسود ومغشى بالسخام. ما أن وضع آشنباخ رجله على الجسر حتى قاده بحار أحدب، متسخ، بتكشيراته التي تحاول أن تتسم بالتهذيب، إلى حجرة كانت لها هيئة مغارة ذات إضاءة اصطناعية. إستقبله من خلف طاولة رجلٌ بلحية تيس وحركات مدير سيرك مقاطعة، معتمر قبعة تغطي أذنيه، وعقب سيكارة بين شفتيه، إستقبله بتكشيرات جديدة، متخذاً مظهراً طلقاً لتسجيل المسافرين وتسليمهم تذكرتهم. «البندقية! ـ كرّر من بعد آشنباخ ماداً ذراعه ومحرّكاً ريشته في المحبرة التي كان يحنيها أمامه ـ البندقية، درجة أولى! هاك أيها السيد!». خربش كتابة رقيقة، صبّ على الحبر الطري رملاً أزرق عاد فكبه في طاس من خشب، ثم ثنى الورقة بأصابعه الصفراء المعقوقدة وعاد يكتب. كان يثرثر وهو يخربش: «أنت ذاهب إلى مكان جميل! البندقية! أية مدينة! أي سحر يتمتع به من يتعرف إليها جيداً! وإلى ماضيها ـ وما يرى فيها اليوم ـ مما لا يُقاوَم!» وفي لحظة قبض ورد



Twitter: @ketab_n

الباقي الذي زلقه على قماش مكتبه الملطخ، بمهارة مدير لعبة قمار. ثم أضاف وهو يقوم بانحناءة احترام مسرحية: «تَسلَّ جيداً أيها السيد. إنه لشرفٌ لي أن أنقلكم، أيها السادة!»، ورافعاً ذراعه، نادى اللاحقين كما لو كان هناك طابور مصطف على الباب، مع أنه لم يكن ثمة بعد زبون واحد. أما آشنباخ فعاد إلى الجسر. نظر، وهو يسند مرفقه للدرابزون، إلى الجمهور العاطل عن العمل الذي كان يتسكع على الرصيف منتظراً رحيل المركب ومن عليه. كان ركاب الدرجة الثانية يجلسون في المقدمة على طرود وصناديق. بدا على مسافري الدرجة الأولى أنهم مستخدمو مخازن في بولا، مجموعة من الشباب، الذين اتفقوا على القيام برحلة إلى إيطاليا، يستثير السفر حماسهم. كانوا يسبغون أهمية كبرى على ذلك، يتفاخرون، يثرثرون، يضحكون، يلتذون بأنفسهم وبجلساتهم بغرور، ينحنون ما فوق حرف المركب مطلقين لرفاقهم، الذاهبين إلى أعمالهم ممسكين بمحافظهم ومجتازين شارع الميناء، ممازحات كان هؤلاء يردون عليها مهددين بطرف العصا أصحابهم الذين يختفون. واحد من الشباب، وهو ولد ذو صوت رمادي يرتدي، بالإضافة إلى ربطة عنق حمراء وقبعة من القش الملون ذات انحناءة مبالغ بها، طقماً صيفياً أصفر فاتحاً مفصلاً تفصيلاً غريباً، كان يبدو منطلقاً بصورة خاصة. لكن بعد أن تطلع إليه آشنباخ عن كثب، لاحظ باشمئزاز أنه كان إزاء شاب مزيف. لا ريب أن هذا الأخير كان شيخاً متصابياً لاحظ التغضّنات في فمه وعينيه. كان أرجوان خديه الكامد مجرد خضاب، وشعره الأسود تحت القبعة ذات الشريط الملوّن مستعاراً. يسمح عنقه الرخو برؤية أوردة منتفخة، أما الشارب الصغير المرفوع وعنفقة الذقن فكانا



Twitter: @ketab_n

مصبوغين، فيما كانت أسنانه التي تكشفها ضحكته في صف منتظم مجرد وجبة رخيصة، ويداه اللتان تحملان في السبابتين خواتم عقيقية منقوشة يدي شيخ عجوز. راقب آشنباخ مسلكه ومسلك رفاقه وهو يرتجف اشمئزازاً. ألم يكن هؤلاء يشعرون بشيخوخة صاحبهم؟ الم تصدمهم رؤيته يكتسي بطريقة نزقة، يتكلّف أناقتهم ويحاول الظهور بمظهر واحد منهم؟ لكن يبدو أنهم كانوا يقبلونه بينهم بصورة طبيعية، أنهم اعتادوا عليه. لم يكونوا يفرقون بينهم وبينه، بل يردون دون قرف على نكاته ومزحاته. «كيف يمكن لهذا أن يحصل؟»، تساءل آشنباخ ممرراً كفه على جبينه وأغمض جفنيه اللذين كانا يضايقانه لأنه لم ينم كفاية. كان يجد نفسه مشدوداً خارج الواقع وشبه منخرط في مغامرة، في حلم يتبدّل فيه العالم، يخضع لتشويهات غريبة ربما كان سيضع حداً لها عن طريق وضع شاشة أمام عينيه قبل أن يرفعهما مجدداً على المحيط. لكنه في تلك اللحظة بالذات، شعر بطفو، وفجأة استولى عليه خوف أبله فنظر ورأى هيكل المركب الثقيل والقاتم ينفصل ببطء عن الرصيف الصخري. شيئاً فشيئاً كان المرء يرى، وهو يتقدّم ويتراجع تحت وطأة إجهاد الآلة، رقعة المياه الدسمة والمبرقشة تتوسع بين الرصيف والمركب، وبعد مناورات عوجاء، تمكن هذا الأخير من الاستدارة بمقدمة نحو عرض البحر. ذهب آشنباخ وجلس على الميمنة حيث وضع له الأحدب كرسياً طويلة، وجاء رئيس خدم يرتدي فراكاً ملطخاً بالشحم يعرض عليه خدماته.

كانت السماء رمادية والهواء رطباً. لم تعد الجزر والميناء على مرمى النظر، واختفى الساحل بعد قليل في الأفق المغشى بالأبخرة. أما



Twitter: @ketab_n

المدخنة فكان يتساقط منها سخا رطب على الجسر الندي المغسول الذي لم يكن ينوي الجفاف. لم تمر ساعة على الانطلاق حتى توجب نشر الخيمة لأن المطر بدأ يتساقط.

كان المسافر يخلد للراحة متلفعاً بمعطفه، ممسكاً بكتاب فوق ركبتيه، والساعات تمر دون أن يشعر بمرورها. توقف المطر عن الهطول فانتُزعت الخيمة من مكانها. كان الأفق واضحاً تماماً. لا شيء تحت السماء الرمادية إلى البحر الواسع القفر. لكن في الفراغ، في الفضاء غير المنقسم، نفقد كذلك مفهوم الزمن، وتغرق روحنا في المغالاة. هكذا كان آشنباخ يرى وهو متمدد الشيخ المتصابي، الرجل ذا لحية التيس الذي رآه قبل قليل، أشباحاً غريبة لم يكن يتوصل إلى إدراك حركاتها أو كلماتها. وما عتم أن أخلد للنوم.

طُلب منه عند الظهيرة أن ينتقل للغداء في غرفة الطعام التي تنفتح عليها القمريات. إلتقى على الطرف المقابل من الطاولة الطويلة الوكلاء ورفيقهم الشيخ، وكانوا جلسوا هناك منذ العاشرة يشربون مع الكابتن المرح. كان الطعام هزيلاً وقد امتنع عن تناوله. كان يحتاج للخروج، لتأمل السماء، لمعرفة ما إذا سوف يحدث صحو عابر في البندقية.

لم يكن يبدو له أن الأمور يمكن أن تكون غير ذلك، لأن المدينة استقبلته دائماً في هالة ضوء، لكن السماء والبحر بقيا معبأين وكابيين، وبين الحين والآخر كان يتساقط الرذاذ. إستسلم لفكرة الوصول من جهة البحر إلى بندقية غير تلك التي كان يكتشفها سابقاً وهو قادم إليها من البحر. أسند ظهره إلى شراع الميزان تاركاً نظره الذي كان يبحث عن اليابسة يسرح في البعيد: كان يفكّر بشبابه ا لمتحمّس والكئيب


Twitter: @ketab_n

الذي شاهد في الماضي القباب والأبراج التي طالما حلم بها تنبجس من بين تلك الأمواج. كانت تغني في ذاكرته لأولئك الذين أوحى إليه احترامهم وسعادتهم وكآبتهم آنذاك الإيقاع المتناغم، ودغدغه بمشاعر وجدت في إحدى المرار تعبيرها. كان يستجوب قلبه الرزين المتعب إذا يقيض للسائح الآتي لتضييع الوقت أن يستعيد الحماس القديم، وإذا لم تكن ربما تنتظره مغامرة عاطفية متأخرة.

إرتسم عن يمينه الشاطئ مسطحاً تماماً. كانت مراكب صيد تُدب الحياة في البحر. ظهرت جزيرة المسابح التي تركتها الباخرة عن شمالها لتجتاز المضيق الذي يحمل الاسم ذاته ببطء، وتتوقف في نهاية المطاف عند البحيرة الساحلية، في مواجهة بيوت مبرقشة بائسة بانتظار زورق مصلحة الصحة.

توجب انتظاره ساعة كاملة. وصل الركاب دون أن يصلوا. لم يكن ثمة ما يستدعي العجلة، ومع ذلك كانوا نافذي الصبر. كان فتيان بولا، الذين اهتز الوتر الوطني لديهم دون ريب قليلاً بفعل نفخات البوق الآتية فوق الماء من جهة الحديقة العامة، قد صعدوا على الجسر، وكانوا يطلقون تحت تأثير خمر آستي صيحات وطنية على شرف الجنود المشاة الظاهرين مقابلهم في ساحة التدريب. إلا أنه كان مشهداً مقرفاً أن يرى المرء في أي حال وضع العجوز نفسه وهو يشارك أصحابه الفتيان حماسهم. لقد فعلت الخمرة التي يتحملها شباب صلب فعلها في رأس العجوز الذي كان سكره مثيراً للشفقة. كان يتمايل في مكانه من السكر، متعتع النظر ممسكاً بسيكارة بين أصابعه المرتجفة، فيما يهتز من الأمام إلى الوراء، ومن الوراء إلى الأمام، محافظاً على توازنه



Twitter: @ketab_n

بصعوبة كبيرة. وبما أنه ما كان ليخطو خطوة دون أن يتعثّر، فقد امتنع عن التقدم، إلا أنه كان يستسلم لنوبات مرح مفجعة، يمسك كل الذين يقتربون منه بأزرارهم، يقول لهم أشياء لا انسجام فيها، يغامزهم، يغرق في الضحك، يرفع إصبعه المغطى بالخواتم والتجاعيد لدى سماعه حتى مزحات تافهة، ويلكح بطرف لسانه ملتقى الشفتين وهو يطلق تضمينات خسيسة. كان آشنباخ يراقبه على تلك الحال وحاجباه مقطبان. من جديد أحس برأسه يضيع كما أمام مشهد عالمٍ يتحوّل بصورة خفيفة لكن لا تقاوم نحو الخارق، يتغضن، يتشوه شيئاً فشيئاً، لكن دون التوقف مع هذا عند ذلك الانطباع: كان الركاب على وشك النزول، فارتجاجات الآلة عادت من جديد وواصل المركب طريقه عبر قناة سان ماركو قبل أن يرسو على الشاطئ.

كان سيرسو إذن مرة أخرى في ذلك المكان الذي يذهل الخيال والذي كانت هندسته المدهشة الخارقة تفعم ذهولاً واحتراماً أولئك الملاحين الذين كانوا يبلغون في الماضي أرض الجمهورية: فخامة القصر القديمة وجسر التنهدات على الشاطئ، الأعمدة، الأسد، القديس، الجناح النافر الفخم للهيكل الأسطوري، الإطلالة على البوابة وعلى الساعة الكبيرة. وحيال هذا المشهد كان يشرع في التفكير أن بلوغ البندقية عبر سكة الحديد يشبه دخول قصر من البوابة الخلفية. لم يكن ينبغي الاقتراب من المدينة المذهلة إلا كما فعل هو، على متن سفينة، وعن طريق البحر.

توقفت الآلة، وتقدمت الغوندولات. ثم بُسط جسر النزول، وصعد رجال الجمارك لتفقد الأمتعة. كان بالإمكان الترجّل. عبر


Twitter: @ketab_n

آشنباخ عن رغبته في استئجار غوندول يوصله مع أمتعته إلى محطة قوارب النزهة التي تؤمن الطريق بين المدينة والليدو، لأنه كان ينوي الإقامة مقابل البحر. مفهوم! أعطيت أوامر لأصحاب الغوندولات الذين كانوا يتجادلون باللهجة البندقانية. أراد آشنباخ النزول لكن حالت دون ذلك بالضبط حقيبته التي كان تُسحب وتُجر وتُدفع بصعوبة على طول الدرج النقال. ها هو إذن مضطر أن يتحمل عدة دقائق ذلك الشيخ المتصابي الرهيب والتحيات المحتشمة التي يجعله سكره يفيض بها تجاه الغريب. «إقامة ممتعة، أيها السيد، إقامة ممتعة في البندقية»، هكذا ثغا الرجل وهو يقدم آيات الاحترام والتبجيل. «احتراماتي التي لا تحصى، ولا تنسنا. إلى اللقاء.

Excusez und bonjour, Euer, Exzellenz!*

كان يسيل لعابه، يغَضِّن جفنيه، يلكح زاوية شفتيه، وترى وبرات عنفقته المصبوغة تنتفش على ذقنه، ثم يتغتغ وهو يلامس فمه بطرف إصبعيه: «تهانئي القلبية، تهانئي القلبية للصديقة الطيبة، للصديقة الجميلة جداً، العزيزة جداً، الطيبة جداً..». وفجأة سقط من فكه طقم أسنان يتدلى من الشفة السفلى. أفلت منه أشنباخ. «للصديقة الطيبة، للصديقة الجميلة»، تابع الآخر بصوت مخمور، يهدل بين حازوقتين، فيما ينزل المسافر الجسر الهابط متمسكاً بالحبل.

من لا تسري فيه قشعريرة خفيفة، أو لا يكون عليه أن يتحكّم بنفور، بخوف خفي وهو يضع قدميه للمرة الأولى، أو على الأقل للمرة الأولى منذ زمن بعيد، في غوندول بندقاني؟ زورق غريب،

---

* عذراً ونهار سعيد يا صاحب السعادة (م).



Twitter: @ketab_n

موروث على حالته من العصر الوسيط، ذو سواد خاص شبيه بسواد التوابيت على وجه التحديد - هذا يذكّر بالمغامرات الليلية الصامتة والمجرمة حيث لا يسمع المرء إلا طبطبة المياه. يوحي ذلك بفكرة الموت بالذات، بأجساد منقولة على محفات، بأحداث جنائزية، بسفرة نهائية صامتة. أليس الكرسي في زورق من هذا النوع، ببرنيقه الصيني وبالسواد الداكن للوسادات المخملية، هو المقعد الأكثر إثارة، الأكثر نعومة، والأكثر إرخاء؟ لاحظ آشنباخ ذلك ما أن استقرعند قدمي الغوندول إزاء أمتعته المجموعة بعناية في مقدمة الغوندول المرفوعة. واصل الملاحون التخاصم بحركات مهددة وكلمات فظة لم يكن يفهم معناها. لكن الصمت الملحوظ لمدينة المياه كان يبدو أنه يستقبل الأصوات بهدوء، ينتزع منها جسمها، يفتتها على سطح الموج. كان الطقس حاراً في المرفأ. يغمض المسافر عينيه، فيما يترك هبة الريح الشرقية الفاترة تتلاعب به، وهو مسترخ، مستسلم بين الوسائد لإيقاع الماء المدغدغ. كان يتذوق اللذة اللطيفة والنادرة التي يشعر بها وهو يترك الأمور تجري في أعنتها. «لن يدوم العبور طويلاً - فكر في قرارة نفسه - لو كان يدوم إلى الأبد!». وفيما كان يهدهده الغوندول الخفيف، أحسّ بالانزلاق، بالإفلات من الجلبة والأصوات.

كم كان يتعاظم الصمت حوله! لم يكن المرء ليسمع سوى ضجيج المجاذيف التي تهوي بإيقاع، وطبطبة الأمواج التي تشقها مقدمة الزورق الذي ينتصب فوق المستوى، أسود صلباً مقطوعاً على شاكلة طبر مستطيل عند حده الأقصى - إلا أن شيئاً آخر كان يُسمع ايضاً، صوتاً غامضاً... كان ذلك هو سائق الغوندول يتمتم، يكلّم نفسه



Twitter: @ketab_n

بصوت خافت، بكلمات متقطعة بين تجذيفتين. رفع آشنباخ عينيه واندهش قليلاً وهو يلاحظ أن صاحب الغوندول يجذف نحو عرض البحر، كان يتعلّق الأمر إذن بعدم نسيان الذات كلياً وبالحرص على أن ينفذ الرجل التعليمات المعطاة إليه.

ـ إلى محطة المراكب، أليس كذلك؟ هكذا قال وهو يستدير نصف استدارة. لكن الغوندولي اكتفى بوقف مناجاته ولم يجب.

ـ إلى محطة المراكب، قلت! كرر آشنباخ وهو يستدير كلياً، رافعاً عينيه بوجه الغوندولي الذي كان يستقر من الخلف على مقعد عال يبرز خياله بوضوح على سماء داكنة. كان ذلك الرجل ذو الهيئة المزعجة، الفظة، يرتدي ثوباً أزرق يلتف بزنار عريض أصفر، يعتمر فخوراً قبعة مائلة لم يَعُدْ لها شكل، تمزّق قشها هنا وهناك. لم يكن ما يوحي فيه أنه طلياني، لا تفصيل وجهه ولا شاربه الأشقر المجعد قليلاً. ومع أنه كان يبدو عليه الهزال بحيث يشعر المرء أنه لا يصلح لمهنته، فقد كان يجذف بقوة، باذلاً كل جهده مع كل تجذيفه. كان يتفق أن يشد الجهد شفتيه إلى الخلف فتتكشفان عن أسنان بيضاء، قطّب حاجبيه الأصهبين وتطلع إلى زبونه من عل ثم أجاب بنبرة حازمة وشبه فظة:

ـ أنت ذاهب إلى الليدو؟

ـ طبعاً، أجاب آشنباخ. لكنني لم أطلب غوندولاً إلا إلى سان ماركو. آخذ من هناك الزورق البخاري.

ـ لا يمكنك أن تأخذ أيها السيد الزورق البخاري.

ـ لماذا ؟



Twitter: @ketab_n

ـ لأنه لا ينقل أمتعة.

كان ذلك صحيحاً. تذكّر أشنباخ هذا الأمر وسكت. إلا أن أساليب الرجل الفظة، طريقته في التعامل من عل مع غريب، وهو ما لم يكن من تقاليد البلاد، بدت له غير محتملة.

ـ هذا شأني ـ أجاب ـ فقد أودع أمتعتي. أما أنت فعليك العودة على أعقابك!

ساد صمت عميق. لم يعد يسمع المرء سوى طبطبة الماء، أكثر وضوحاً تحت المجذاف، عديمة الرنين وصماء عند المقدمة. ثم عاود الصوت، مخنوقاً، غامضاً: كان الغوندولي يناجي نفسه.

ماذا يقرر؟ لم يكن المسافر يعرف كيف يفرض طاعته، وهو وحيد في الزورق مع هذا المقدام الغريب، المشؤوم والجازم. في كل حال، كم يكون مرتاحاً ومسترخياً فيما لو تراجع عن ذلك! ألم يتمنَّ أن يطول العبور، ألاّ ينتهي؟ ألا يكون معقولاً أكثر، لا بل ألذ، أن تترك الأمور لمقاديرها؟ أحسّ بالكسل يمتلكه وكما لو كان مربوطاً بتأثير مغناطيسي إلى مقعده، إلى ذلك المقعد الواطئ والمؤرجح بهدوء، بوساداته السوداء، على إيقاع مجاذيف الغوندولي المتصلّف الجالس خلف ظهره. لامست روحه كحلم فكرة إمكان أن يكون في نية الرجل الاعتداء على حياته. لكنه لم يكن قادراً إطلاقاً على التخلص من خدره، على الدفاع عن نفسه. كان يثير همه أكثر أيضاً تفكيره أن الأمر ربما لا يتعلّق إلا بابتزاز ماله شيءٌ ما شبيه بالشعور بالواجب، إعتزاز قديم وتذكر ما ينبغي عمله في تلك الحال، كل ذلك جعله يستدرك فيسأل:

ـ كم تقبض للذهاب إلى هناك؟



Twitter: @ketab_n

قال صاحب المركب ونظره متجه إلى البعيد من فوق رأس آشنباخ:

- سوف تدفع.

كان جواب على هذا الكلام يفرض نفسه. فأجاب آشنباخ آلياً:

- إطلاقاً. لن أدفع إذا كنت تقودني إلى حيث لا أنوي الذهاب.

- أنت ذاهب إلى الليدو.

- لكن ليس معك.

- أنا أسوق جيداً.

«صحيح»، فكر آشنباخ واسترخى. «صحيح أنك تسوق جيداً. حتى ولو كنت تحقد على محفظة نقودي، ولو أرسلتني إلى الجحيم بضربة مجذاف من الخلف، فأنا أسلم بأنك سقت جيداً».

لكن لم يحدث شيء من ذلك، حتى أن آشنباخ رأى غونودليه يجذف بعد ذلك بقليل بمصاحبة موسيقيين متجولين، مجموعة من الرجال والنساء الشاردين الذين كانوا يغنون وهم يعزفون على الماندولين والغيتار محاذين بغوندولهم غوندول آشنباخ بإصرار، مالئين الصمت البحري بأنغامهم المجلوبة المطروحة للبيع. رمى آشنباخ نقوداً في القبعة التي كانوا يمدونها نحوه. توقفوا عن الغناء ومضوا في طريقهم. عند ذلك عادت تسمع شكاة الغوندولي الذي واصل مناجاته المتقطعة وغير المترابطة.

إن الغوندول، الذي كان يهدهده شق المياه خلف زورق بخاري صغير، رسا إذن في المرفأ الصغير. كان رقيبان أولان من المدينة يتحركان في كل اتجاه، ويداهما خلف ظهرهما، ووجههما نحو البحيرة



Twitter: @ketab_n

الساحلية. فشخ آشنباخ فوق الغوندول وصعد على الجسر يساعده واحد من أولئك العجائز الذين يجدهم المرء في البندقية عند كل جسر عائم، مسلحين بمحجن. ولما لم يكن يحمل نقوداً، مضى إلى الفندق المواجه لتصريف العملة ونقد الغوندولي ما يطلبه. عاد بعد أن صرف. كانت حقيبته قد وضعت على الرصيف في عربة صغيرة، إلا أن الغوندول وصاحبه اختفيا. «لقد هرب ـ قال العجوز ـ لا ينبغي الثقة بهذا الرجل. لا يحمل تصريحاً أيها السيد. إنه الغوندولي الوحيد الذي لا يحمل تصريحاً. تلفن الآخرون لإبلاغ الشرطة. رأى أنه سيقع بين أيديها فهرب.

ـ لقد وصل السيد إلى هنا دون أن يدفع شيئاً»، قال العجوز وهو يمد برنيطته. رمى آشنباخ قطع نقود فيها ثم أعطى الأمر بنقل أمتعته إلى فندق الحمامات ولحق بالعربة على امتداد المعبر، المعبر الأبيض المزدان بالزهور الذي يقود إلى الشاطئ عبر الجزيرة بين حانات وفنادق وأسواق.

وصل خلف الفندق الواسع الذي دخله عبر المصطبة. ذهب مباشرة إلى المكتب، مجتازاً البهو والرواق. وبما أنه أعلن عن نفسه قبل قدومه، فقد جرى استقباله بحفاوة وحسبما هو مقرر. قاده مدير المؤسسة، وهو رجل قصيرة ذو شاربين أسودين وسترة طويلة من النمط الفرنسي، قاده بتهذيب رصين إلى المصعد ودله على غرفته في الطابق الثاني. كانت غرفة لذيذة، أثاثها من خشب الكرز الفاتح اللون، مزدانة بالزهور ذات العطر المدوّخ. ما أن أصبح آشنباخ لوحده حتى تقدم من إحدى النافذتين الكبيرتين اللتين تطلان على البحر، وبانتظار ترتيب أمتعته في



Twitter: @ketab_n

الغرفة، نظر إلى الشاطئ المهجور في تلك الساعة من بعد الظهر، وإلى البحر غير المشمس الذي كان يعلو ويتقدم بانتظام يضرب الشاطئ بأمواجه الطويلة والمنبسطة.

لا يرى المرء الأشياء وهو لوحده مخلد إلى الصمت كما يراها وهو في المجتمع. في الوقت ذاته الذي تحتفظ فيه بغموض أكثر تذهل النفس أكثر. تصبح الأفكار أكثر وقاراً، تميل إلى التشوه وتصطبغ بالكآبة على الدوام. ما أن تراه، ما تلاحظه، ما كان ليضايقك في المجتمع وأنت تبادل نظرة، ضحكة، حكماً، يشغلك أكثر مما ينبغي، يتعمّق بالصمت، يتخذ معنى، يصبح حدثاً، مغامرة، انفعالاً. من الانفراد تولد الغرابة، يولد الجمال في ما ينطوي عليه من جسور وغريب، تولد القصيدة. ومن الصمت أيضاً، تولد الأشياء مقلوبة، مختلة الترتيب، عبثية، مدانة. هكذا كانت تشغل بال المسافر باستمرار صورة السفرة، العجوز المتصابي الرهيب، ثرثراته، قصصه عن الصديقة الطيبة، والغوندولي الخطاف الذي حُرم من ماله. لم تخرج عن نطاق العادي ولم تكن بسبب ذلك مشكلة، لا بل لم تستدع التفكير، إلا أنها كانت مع ذلك ذات طبيعة غريبة، حسبما بدا لآشنباخ الذي كان يثير فيه ذلك التباين الاضطراب. وراح يحيي، في غضون ذلك، البحر بعينيه ويستمتع بالشعور بالبندقية قريبة منه إلى ذلك الحد. حاد عن الشباك أخيراً ومضى يغسل وجهه، أعطى أوامر إلى الخادمة، وبعد أن أعد لنفسه إقامة مريحة أنزله عامل المصعد، وهو سويسري ذو بزة خضراء، بناء على طلبه إلى الطابق الأرضي.

شرب الشاي على المصطبة التي تطل على البحر، ثم نزل درجات



Twitter: @ketab_n

الرصيف وتنزّه طويلاً باتجاه فندق إكسلسيور. وفيما كان عائداً رأى أن الوقت حان لارتداء ملابسه لتناول العشاء. وهو ما قام به في ذلك النهار أيضاً ببطء وبدقة لأنه كان معتاداً على العمل أثناء ترتيب هندامه. إلا أنه وصل قبل الوقت قليلاً إلى البهو حيث وجد معظم النزلاء مجتمعين، وبما أنه لا يعرفون بعضهم بعضاً فقد كانوا يتظاهرون بجهلهم بعضهم للبعض الآخر، فيما كان انتظار الطعام يقيم علاقة فيما بينهم. تناول صحيفة من على الطاولة، وجلس على مقعد جلدي يراقب الحضور. لم يكن لحسن الحظ يشبه نزلاء الفندق الذي غادره للتو.

كان ينفتح أفق واسع، يستقبل ألف شيء وشيء. تسمع لغات الأرض الرئيسية بصوت خافت. كان رداء السهرة، وهو زي كرسته التقاليد، معتمد في العالم أجمع، يضم من الخارج تباينات البشرية جمعاء، يرجعها إلى نموذج مقبول. كان يُرى أميركيون ذوو وجوه يابسة ومستطيلة، روس محاطون بعائلاتهم الكبيرة، إنجليزيات، أطفال ألمان ومربياتهم الفرنسيات. كان يطغى عدد السلافيين على الحضور فيما يتكلم الجالسون قرب آشنباخ اللغة البولونية. جلس البولونيون، وهم فتية تخطوا لتوهم سن الطفولة، تحت رقابة مربية حول طاولة من أسل الهند. كانت المجموعة تتألف من ثلاث فتيات بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة ومراهق طويل الشعر يقارب الرابعة عشرة من عمره. كان هذا الفتى ذا جمال خارق أذهل آشنباخ. كان شحوب وجهه المحاط بخصلات شقراء عسلية ولطافته الصارمة، أنفه المستقيم وفم محبب ورصانة معبرة وشبه إلهية، كل ذلك كان يجعل الناظر إليه


Twitter: @ketab_n

يفكر بالنحت الإغريقي في العصر الذهبي، ورغم كلاسيكة الملامح فقد كان لها سحر خاص وفريد لم يتذكر آشنباخ أنه رأى بمثل كماله من قبل، لا على الطبيعة ولا في المتاحف. كان يذهله شيء آخر أيضاً: مفارقة مقصودة بالطبع بين المبادئ التي يتم وفقاً لها تربية هذا الفتى وإلباسه وتعهده من جهة، وأخواته من جهة أخرى. أما زينة الفتيات اللواتي كانت كبراهن أصبحت تبدو امرأة، فكانت ذات احتشام وجفاف يصلان حد البشاعة. إن فساتينهن المتوسطة الطول، القرميدية اللون، بتفصيلها الرصين عن قصد وغير المناسب، التي لا يضفي عليها البهجة إلا طوق أبيض مقلوب وحسب، وتجعل المرء يفكر بأزياء الراهبات، كانت تقيد أجسادهن وتنتزع منها كل رونق. أما الشعر المسحوب إلى الخلف والملصوق بجلدة الرأس فيضفي على وجوههن الطابع الفارغ والتافه لوجوه الراهبات. كان المرء ليشعر بيد الأم عبر كل تلك التفاصيل، وهي مربية لم يكن يخامرها أن تعامل ولدها بالصرامة ذاتها التي تعامل بها بناتها. بديهي أنه كانت تؤمِّن حياة سهلة للفتى، يحاط بحنان. لم تلامس المقصات يوماً شعره الرائع الذي تشبه خصلاته خصلات نازع الشوك* تنساب على جبهته وأذنيه، وعلى رقبته أيضاً. كان زي بحري، تتقاصر أكمامه المنتفخة وتضغط عند المعصم على التمفصل اللطيف ليديه الطفوليتين، لكن الرشيقتين، يضفي على القامة المشوقة بزركشاتها القيطانية وأشرطتها وفتحاتها أمارات ترف وتنميق. كان يجلس في مقعد من أسل الهند، مظهراً معظم جسده، ماداً إحدى ساقيه، مقدماً حذاءه الدقيق المبرنق،

* تمثال برونزي قديم (م).



Twitter: @ketab_n

معتمداً بمرفقه على ذراع المقعد، واضعاً خده على يده المطوية، في مزيج من التحفّظ والاستسلام، دون أن يذكّر أي شيء فيه بالمظهر المتصلّب وشبه المستسلم الذي كان يبدو أن أخواته اعتدن عليه. هل كانت صحته رهيفة؟ فوجهه يبرز بفوارق* عاجية في الظل المذهب الذي يسدله شعره. أم أنه ولد مدلل جداً، الولد المفضل الذي يجري إفساده بفعل هوى عابر؟ كان آشنباخ يرجح ذلك. ليس من فنان لا يشعر باستعداد ملتذ ومنافق لتكريس الظلم الذي يولد الجمال، للانحناء بود أمام أفضال موزعة أرستقراطياً.

أعلن مدين الخدم بالإنكليزية أن العشاء جاهز. شيئاً فشيئاً، اختفت المجموعة المتشكّلة عبر الفرجة المزججة لغرفة الطعام. كان بعض المتأخرين الآتين من البهو ومن المصعد يعبرون. بدأ النزلاء يأكلون، إلا أن الفتيان البولونيين الجالسين إلى الطاولة الصغيرة في الصالة ظلوا في أماكنهم، فيما ظل آشنباخ، المتمترس في مقعده والحاضن بنظره المراهق الجميل، ينتظر معهم.

أخيراً، أعطت المربية، وهي امرأة قصيرة، حمراء الوجه، بدينة وبورجوازية، إشارة النهوض. أرجعت كرسيها إلى الوراء، مقطبة الحاجبين، لتحية السيدة التي دخلت، كبيرة، مرتدية لباساً رمادياً فاتحاً ومزدانة باللآلئ. كان مسلكها بارداً ومتحفظاً. يكشف شعرها المبودر قليلاً وشكل فستانها صرامة تلك المنتديات الاجتماعية حيث يرافق التميز شيءٌ من التقويَّة. قد يظنها المرء زوجة موظف ألماني كبير. كانت

* الفارق هنا هو درجة إشراق الألوان (م).



Twitter: @ketab_n

أمارات الترف والنزق لديها عائدة فقط إلى زينتها الغالية، المؤلفة من أقراط، ومن عقد ذي ثلاثة صفوف من اللآلئ الضخمة التي تلمع بألق حليبي.

كان الأولاد قد نهضوا: إنحنوا لتقبيل اليد التي مدتها إليهم والدتهم، فيما كانت ابتسامتها المتحفّظة تشرد على وجه يبرز فيه الأنف، وينم رغم العناية عن تعب خفيف، وقد وجهت من فوق رؤوس الأولاد، وهي تنظر إلى البعيد، بعض الكلمات إلى المربية باللغة الفرنسية. ثم اتجهت نحو الفرجة المزججة. تبعها الأولاد، الفتيات أولاً حسب أعمارهن، ثم المربية فالفتى أخيراً. إستدار هذا لسبب أو لآخر قبل أن يجتاز العتبة، ولما لم يكن باقياً هنالك غير آشنباخ، فإن عينيه، اللتين بلون الفجر الرمادي، التقتا عينيّ المسافر الذي كان يتابع بنظره المجموعة ذاهبة، ضائعاً في تأمله، وعلى ركبتيه الجريدة.

لم يكن ثمة بالتأكيد ما هو جدير بالملاحظة بنوع خاص في هذا المشهد. لم يجلس أحد من الأولاد قبل الوالدة، بل انتظروها، حيوها باحترام وحافظوا وهم ذاهبون إلى قاعة الطعام على الأشكال المرعية. إلا أن ذلك كله حدث بصورة شكلية جداً، وكان هناك تناغم في تلك الأشكال، ذلك العرف، تلك الوقفة، إلى درجة أن آشنباخ شعر برعشة غريبة. تأخر لحظة أيضاً، ثم انتقل بدوره إلى صالة الطعام حيث طلب تحديد طاولته التي لاحظ بحركة آسف خفيفة أنها بعيدة جداً عن طاولة البولونيين.

انشغل طيلة الوجبة بأفكار مجردة، ما ورائية، وذلك بمزيج من العياء والإثارة الدماغية. كان فكره يبحث عن العلاقة الغامضة التي



Twitter: @ketab_n

ينبغي أن تصل الخاص بالعام من أجل أن يولد الجمال البشري، ثم انتقل إلى مشكلات الفن والأسلوب حتى انتهى إلى ملاحظة أن أفكاره واكتشافاته كانت تشبه إيحاآت الحلم تلك التي تبدو موفقة بصورة واضحة، وتظهر عند الاستيقاظ سطحية ولا قيمة لها. بقي بعد مغادرة الطاولة وقتاً في الروضة في حركة دائمة، يجلس هنا، فهناك، يدخن، ينتشق عطور المساء. مضى باكراً لينام، ثم نام نوماً متواصلاً، عميقاً، لكن عامراً بالرؤى والأحلام.

لم يكن ثمة في الغداة ما يشير إلى أن الطقس سيكون أفضل. فالريح تعصف من ناحية البر، وتحت سماء شاحبة مغطاة بالغيوم كان البحر يرتاح ما بين شطآنه الضيقة التي لا لون لها، كئيباً، منطوياً على نفسه ومنسحباً إلى الداخل لدرجة كان يكشف معها تتالياً طويلاً للأرصفة الرملية. اعتقد آشنباخ وهو يفتح النافذة أنه يشم الرائحة العفنة للبحيرات الساحلية.

استولى عليه اضطراب مفاجئ. ومذ ذاك شرع يفكر بالرحيل. حدث ذات مرة قبل سنوات أن وجد نفسه مفجوعاً هنا بالذات بطقس شبيه، بعد أسابيع ربيعية رائعة، وقد أحس بالضيق بحيث سارع إلى مغادرة البندقية. ألم يكن يشعر مجدّداً، كما آنذاك، بتوعك حمّاوي، بضغط في الصدغين وثقل في الجفون؟ إلا أنه أحسّ أن انتقالاً جديداً إلى مكان آخر أمر غير مرغوب فيه. لكن إذا لم تتغيّر الريح، يصبح مستحيلاً أن يبقى هنا. ولمزيد من الأمان لم يفك حقائبه كلياً. ذهب في التاسعة إلى صالة الشاي المعدة للترويقة بين البهو وغرفة الطعام.


Twitter: @ketab_n

كان يسود في تلك الحجرة صمت ديني هو إحدى العلامات المميزة للفنادق الكبرى. فالخدم يقومون بعملهم بخطوات صامتة. لا يكاد يسمع المرء ضجة فنجان أو إبريق شاي، أو كلمة مهموسة. لاحظ آشنباخ الفتيات البولونيات ومربيتهن في زاوية تنحرف نحو الباب، على بعد طاولتين من طاولته. كن جالسات يتداولن فيما بينهن إناء مربى وهن منتصبات كلياً، وشعرهن الأغبر مملس منذ قليل، يلبسن بزات من القماش الأزرق المنشّى، بأردان قصيرة وأطواق صغيرة بيضاء مقلوبة. إنتهين من فطورهن تقريباً. أما الفتى فلم يكن هناك وظل غائباً.

إبتسم آشنباخ وفكّر: «Allons petit Phéacien . يبدو أن لك امتيازاً على أخواتك وأنك تتمتع بمزية النوم إلى الضحى».

وفجأة ردد مستمتعاً:

*«أيتها الحلى المتبدّلة غالباً، أيتها*

*الحمامات الفاترة والراحة..»*

أفطر متمهلاً، واستلم بريده من البواب الذي دخل إلى الصالة ممسكاً عمرته بيده، ثم فض بعض الرسائل وهو يدخن سيكارة. كل ذلك جعله يشهد وصول المتأخر المنتظر على الطاولة الأخرى.

دخل هذا عبر الباب المزجج واقترب من طاولة شقيقاته مجتازاً القاعة الصامتة بانحراف. كانت مشيته، تماسك نصفه الأعلى، حركة ركبتيه، طريقة وضع القدم المنتعلة حذاء أبيض، كل هيئته ذات رونق غير عادي، خفيفة جداً، لطيفة ومعتزة في آن معاً، وأجمل أيضاً بالحياء



Twitter: @ketab_n

الطفولي الذي رفع به عينيه فيما هو عابر، وخفضهما مرتين لإلقاء نظرة على القاعة. إحتل مكانه وهو يبتسم، متلفظاً بكلمة مهموسة بلغته اللطيفة والسلسة. وبعد أن برز جانب وجهه بوضوح، لم يتمالك آشنباخ نفسه من الذهول أكثر مما في اليوم السابق، لا بل من الرهبة حيال الجمال الإلهي حقاً لهذا الفتى الفاني. كان الفتى يرتدي اليوم بذلة خفيفة من القطن المزيَّج بالأزرق والأبيض، الذي يفصله شريط حاشية من الحرير الأحمر على الصدر وحول العنق عن طوق أبيض بسيط. إلا أن الرأس كان، كزهرة متفتحة، يرتاح بفتنة لا مثيل لها على ذلك الطوق القليل الأناقة في كل حال، وغير المنسجم مع مجمل البزة ـ رأس إيروس* بانعكاسات صفراء لمرمر باروس Paros، والحاجبان مرسومان بوقار، فيما يغطي الشعر الصدغين والأذنين، قاتماً وحريرياً، تنطلق خصلاته بزاوية مستقيمة نحو الجبين.

ـ عال، عال! إستحسن آشنباخ ببرودة التقني التي يتصنعها الفنانون أحياناً للتعبير عن إعجابه وحماسهم في حضرة إحدى الروائع. وأضاف متابعاً حبل تفكيره: «في الواقع، لولا أن البحر والرملة ينتظرانني لكنت أبقى هنا ما بقيتَ أنت!» لكن بما أن هذا محال، فقد اجتاز البهو، محاطاً بمجاملات المستخدمين، نزل المصطبة الكبرى ومضى مباشرة عن طريق عبّارة الألواح الخشبية إلى الشاطئ المخصص للفندق. فتح له الكابينة، التي استأجرها، معلم السباحة العجوز المنصرف هناك إلى أعماله حافي القديم، بسروال كتاني وبذلة بحار وقبعة قش، ووضع له

---

* إله الحب (م).



Twitter: @ketab_n

الطاولة ومقعداً على ألواح المصطبة الرملية، حيث استقر مرفهاً على الكرسي الطويل الذي سحبه نحو مكان أقرب إلى البحر، على الرمل الأشقر.

كان يثير اهتمامه ويسليه أكثر من أي وقت مضى مشهد الشاطئ، تلك المتعة اللامبالية والشهوانية التي يجدها المتمدن على ساحل اللانهاية. كان البحر الرمادي والمسطح يفيض حياة بأطفال يتخبطون في الماء وهم يسبحون، بخيالات متنوعة كانت ترتاح على الأرصفة ورؤوسها مستندة إلى أذرعها المتصالبة. كان آخرون يجذفون في حسكات صغيرة مطلية بالأحمر والأزرق، وينقلبون ضاحكين. أمام الصف الطويل للكابينات التي تشبه سطيحاتها فيرندات صغيرة، كانت تعم الحركة، الألعاب، كسل الأجساد الممددة، الزيارات والمحادثات، الأناقة المفرطة، والأجساد الجريئة في تعريها، مستفيدة بتلذذ من امتيازات الشاطئ. إلى الأمام، كان يتنزه البعض على الرمل الرطب والثابت بقمصان حمام بيضاء أو ببذلات واسعة ذات ألوان جذابة. إلى اليمين حصن معقد بناه أولاد صغار مشكوك بسرادقات صغيرة لها ألوان كل البلدان. يركع باعة أصداف وحلويات وثمار ليعرضوا بضاعتهم. إلى الشمال، أمام إحدى الكابينات المصفوفة عمودياً بالنسبة للكابينات الأخرى وللبحر، مغلقة هكذا الشاطئ جانبياً، كانت تخيِّم عائلة روسية: رجال ملتحون صلبو الأسنان، نساء لطيفات ومتكاسلات، fraulein* من المقاطعات البلطيقية جالسة

* الألمانية في النص (م).



Twitter: @ketab_n

أمام لوحة صغيرة ترسم مشهداً بحرياً وهي تطلق صيحات تعجب يائسة. ولدان يبتسمان ببشاعة جذابة. خادمة عجوز تعتمر مدراساً*، عبدة لها تصرفات خانعة بحنان. كانوا يعيشون هناك في غبطة تامة، لا ينفكون ينادون الأولاد العصاة والراكضين كالمجانين بأسمائهم، يمزحون طويلاً، مستخدمين بعض الكلمات الطليانية، مع الساخر - على - البارد pince-sans-rire الذي كان يبيعهم سكاكر، يتبادلون قبلات، يتلذذون دون أدنى احترام إنساني في تواصلهم الغريزي.

«سوف أبقى إذن»، فكر آشنباخ. أين في وسعه أن يكون أفضل حالاً. شبك يديه على ركبتيه ثم ترك عينيه تتيهان في أقاصي البحر، ونظره يفلت، يغرق، ينكسر في البخار الرمادي للامتداد القفر. كان لحبه للبحر جذور عميقة: الحاجة للراحة لدى الفنان المضطر للقيام بجهد جهيد، والذي يعوزه إزاء تطلب الظاهرات المتغير الشكل أن يلجأ إلى أحضان البساطة المفرطة. ميل محظور - معاكس لمهمته مباشرة، وبناء على ذلك مغر للغاية - إلى اللامتمفصل، إلى اللانهائي، إلى الأبدي، إلى العدم. إن الراحة في الكمال، هي حلم من يجتهد لبلوغ الجودة. والعدم، أليس شكلاً من أشكال الكمال؟ والحالة هذه، لما كان يترك أحلامه تغوص في الفراغ، اجتاز خط شاطئ البحر الأفقي فجأة شكل إنساني، وحين رجع بنظره المنفلت نحو اللانهاية، رأى المراهق الجميل يمر أمامه في الرمل، قادماً من اليسار.

كان متحفياً، على وشك أن يمشي في الماء، بساقيه الرشيقتين العاريتين

---

* لباس للرأس مصنوع من نسيج خفيف من الحرير والقطن (م).



Twitter: @ketab_n

حتى ما فوق الركبتين. كان يمشي وئيداً، لكن بخفة واعتزاز، كما لو كان جد معتاد على الرواح والمجيء حافياً، واستدار نحو الكابينات القائمة بعرض الشاطئ. لكن ما أن لمح العائلة الروسية التي كانت تنصرف هناك لانشغالاتها المعتادة في طمأنينة لطيفة، حتى مرّت سحابة غيظ واحتقار على وجهه. تجهم جبينه، قلصت شفتيه برطمة حانقة وغضنت أحد خديه، ثم تقطب حاجباه بعنف بلغ حداً ظهرت معه عيناه تغوصان تحت قوسي الحاجبين ثم تطلقان من خلوتيهما سهام حقد، بعد أن أصبحتا قاتمتين خبيثتين. أحنى نظره، أدار مرة أخرى رأسه بما يشبه التهديد ثم هزّ كتفيه بحركة مفاجئة وابتعد عن العدو.

مال آشنباخ بوجهه بنوع من اللياقة أو التأثر الناجم عن الاحترام والحياء، كما لو لم يرَ شيئاً. ذلك أن الرجل الحكيم الذي تجعله الصدفة شاهداً على الوجد يأنف أن يستخدم ملاحظاته، حتى في عمق أعماقه. إلا أنه كان في فرحه وانفعاله الشديد يفيض غبطة. تدخل التفاهة الإلهية في علاقة مع الإنسانية، بفضل تلك العصبية الطفولية الموجهة ضد المشهد الأكثر براءة. إن رائعة ثمينة من روائع الطبيعة المخصصة حصراً لمتعة العيون، بدت جديرة باهتمام أعمق، واكتسب وجه المراهق الملفت النظر بجماله رونقاً يسمح بأخذه على محمل الجد رغم صباه.

كان آشنباخ يصغي، وهو ما يزال مديراً رأسه، إلى صوت الفتى، ذلك الصوت الصافي، الخافت قليلاً، الذي كان يحاول الإعلان به عن نفسه من بعيد محيياً الأصحاب المنشغلين حول الحصن. أجاب هؤلاء مراراً عديدة وهم ينادونه باسمه أو بأحد أسماء دلاله، فيما يصغي آشنباخ



Twitter: @ketab_n

بنوع من الفضول دون التوصل إلى فهم شيء محدد. كان ذلك مقطعين رخيمين، ما يشبه «أدجيو Adgiou» أو أغلب الأحيان منتهية بـ «أو ou» ممتدة إلى النهاية. أعجبه الصوت. وعد ترخيمه يلبي مرامه، كرره، وبعد أن شعر بالاكتفاء، انشغل برسائله وأوراقه.

أخذ قلم الحبر وواصل كتابة الرسائل، وهو يضع نشافة السفر الصغيرة على ركبتيه. لكن بعد مرور ربع ساعة، وجد من المؤسف أن يبتعد هكذا بروحه عن الحالة الأكثر جدارة بالتذوق الكلي وأن يهملها من أجل انشغال تافه. نَحّى الريشة والقرطاس وعاد إلى البحر. وبعد أن جذبته سريعاً أصوات بناة الحصن الفتية استدار لامبالياً إلى اليمين برأسه المتكئ على مسند الكرسي، للاهتمام بأفعال وحركات أدجيو اللذيذ.

إكتشفه من أول نظرة ألقاها. كان شريط الحاشية الأحمر على صدره يدل عليه من بعيد. فيما هو منشغل مع أولاد آخرين بوضع خشبة عتيقة بمثابة جسر فوق حفرة الرمل الرطبة، كان يعطي تعليماته بهذا الخصوص بكلمات وإيماءات من الرأس. كان معه هناك عشرة رفاق تقريباً، صبياناً وفتيات، بعضهم من عمره وآخرون أصغر منه، يتكلمون كل اللغات بلا نظام، البولونية والفرنسية واللغات البلقانية أيضاً. لكن اسمه هو الذي كان يسمع أغلب الأحيان. الجميع ينشدونه ويحيطونه بأمارات الولاء والإعجاب. واحد من أولئك الفتيان ، وهو بولوني مثله، يدعونه بما يشبه اسم «جاشو»، قصير وسمين، ذو شعر أسود مدهون، كا ن يبدو تابعه الأول وصديقه. حين أنتهيا من أعمال أبناء لذلك اليوم، ذهبا معاً على امتداد الساحل الرملي متضامين، والمدعو «جاشو عانق رفيقه الجميل.



Twitter: @ketab_n

سولت لآشنباخ نفسه أن يهدده بإصبعه: «أما أنت يا كريتوبولس ـ فكر وهو يبتسم ـ فسافر عاماً كاملاً: يلزمك كل هذا الوقت لتتماثل إلى الشفاء». ثم تروّق عدة ثمار ممتلئة من الفريز الناضج اشتراها من أحد الباعة. صارت الحرارة حادة مع أن الشمس لم تتمكن من اختراق طبقة الضباب التي غطت السماء. كان نوع من الكسل يقيد آشنباخ فيما تتذوق أحاسيسه المعايشة الباهرة والمذهلة للسكينة البحرية. طفق هذا الرجل الرصين والمفكر يبحث ويحاول أن يحزر أي اسم يمكن أن يكون له وقع شبيه بوقع «أدجيو»، وكانت تلك المشكلة تبدو له جديرة بشغل تفكيره. توصل اخيراً، مستعيناً ببعض الذكريات البولونية، إلى استخلاص أن الأمر ينبغي أن يتعلق بـ «تادزيو» وهو اختصار «تاديوس» الممدود تعجباً «تادزيو».

كان تادزيو يستحم. وآشنباخ الذي كان أضاعه اكتشف بعيداً في البحر رأسه وذراعه التي مضى يرفعها للتجذيف. إن البحر مسطح في الأخير على مسافة كبيرة. إلا أن القلق عليه بدأ يساور البعض. كانت أصوات نسائية تناديه من الكابينات، صارخة من جديد بذلك الاسم الذي بدا يسيطر على الشاطئ كشعار، ويوحي، بأحرفه الصوتية اللطيفة والـ «أو» النهائية الممدودة بإلحاح بشيء ما حنون ومتوحش في آن معاً: «تادزيو! تكرر». رجع، اجتاز الأمواج راكضاً رافع الرأس، رافعاً الموجة التي تقاوم ساقيه زبداً. أن نرى هذا الشكل الحي، اللطيف والقاسي معاً في رجولته الأولى، يبرز واضحاً في الأفق البعيد للسماء والبحر، ينتصب شبيهاً بوجه إلهي، ويفلت من الماء فيما شعره يتقطر، فذلك مشهد يوحي برؤى خرافية، بما يشبه أسطورة


Twitter: @ketab_n

شعرية من العصور الأولى تروي بدايات الجمال وولادة الآلهة. كان آشنباخ يصغي مغلق العينين إلى ذلك الصدى الملحمي المهتز في روحه: فكر مرة أخرى أن الحياة تحلو في ذلك المكان وأنه باق هناك.

بعد ذلك بقليل كان تادزيو الممدد عل الرمل، الملتف بدثاره الأبيض يرتاح من حمامه، مرخياً رأسه على ذراعه العارية، ولم يكن آشنباخ ينسى وهو يقرأ بعض صفحات كتابه أن الفتى ممدد هناك، حتى ولو لم يركز عليه عينيه، وأن حركة خفيفة من الرأس إلى اليمين كافية كي يرى المشهد الرائع. كان يبدو له أنه هناك ليحمي راحة الفتى، وأن عليه، في الوقت الذي يهتم فيه بقضاياه الخاصة، أن يحرس بيقظة لا تكل المثل الأعلى للإنسانية الجميلة الذي كان عن يمينه، غير بعيد عنه. كان قلبه ممتلئاً ومضطرباً بحنان أبوي، بالانعطاف المنفعل من جانب من ينذر عبقريته لخلق الجمال، تجاه من يمتلك ذلك الجمال.

بعد الظهر، غادر الشاطئ عائداً إلى الفندق، وما أن بلغه حتى أخذ المصعد متجهاً إلى حجرته. بقي فيه طويلاً أمام المرآة متطلعاً إلى شعره الأشيب ووجهه المتعب ذي الملامح البارزة. هنا تذكر شهرته، تذكر أن في الشارع عدداً كبيراً من المارة يميزونه وبنظرون إليه لصواب كلمته المعصوم ورونقها اللامتناهي. إستعاد كل ما أمكنه تذكره من النجاحات المادية لموهبته، غير ناس حتى رفعه إلى مصاف النبلاء. ثم نزل للطعام وتغدى على طاولته الصغيرة في الصالون. بعد الطعام، وفيما كان يدخل في المصعد، تدافع وراءه في القفص المتحرك الصغير فتيان أنهوا لتوهم كذلك تناول الغداء، ومن بينهم تادزيو. وقف قريباً من آشنباخ، قريباً جداً للمرة الأولى، بحيث أن هذا تمكن، عوض



Twitter: @ketab_n

أن يراه كصورة غير واضحة، أن ينظر إليه ويفصِّله في كل عناصر إنسانيته.وجَّه أحدهم كلمه إلى الفتى، وفيما يجيب مبتسماً بلطف لا يوصف خرج في الطابق الأول متراجعاً وغاضاً نظره. فكر آشنباخ أن الجمال يولد الحياء وعمّق تلك الفكرة باحثاً عن سبب ذلك. إلا أنه لاحظ أن قواطع تادزيو ليست دون عيب، فهي محززة قليلاً، ينقصها ميناء ذوي الصحة المتينة، وتُبرز تلك الشفافية المميزة سريعة العطب التي ترافق اليرقان أحياناً. «إنه رهيف جداً، معرض للمرض، ـ فكر آشنباخ ـ ومن المحتمل أنه لن يعيش طويلاً». صاحب تلك الفكرة نوع من الشعور بالرضى أو بالهدوء الذي تراجع عن البحث عن تفسيره.

أمضى ساعتين في حجرته، وقصد بعد الظهر البندقية في قارب بخاري كان يقوم بالرحلات البحرية عبر البحيرة الساحلية النتنة. نزل في سانت مارك، تناول الشاي في الساحة، وقام بعد ذلك بجولة عبر الشوارع، حسب البرنامج الذي كان وضعه لإقامته في تلك المدينة. إلا أن هذه النزهة هي التي أدت إلى انعطاف كامل في مزاجه وقراراته. كانت حرارة ثقيلة ومقرفة تسيطر في الأزقة. وكان الجو غليظاً إلى حد أن الروائح التي تفوح من المساكن والمخازن والمطاعم الحقيرة، أبخرة الزيت، نفحات العطور وأشياء أخرى كثيرة كانت تبقى بكميات ولا تتبدد. يبقى دخان السيجارة في مكانه ولا يبتعد إلا ببطء. كانت حركة الجمهور المستمرة في المعبر الضيق تزعج المتنزه بدل أن تسليه. بقدر ما كان يتقدم كان يحس بتعذيب السقوط في الحالة الكريهة التي يمكن للهواء البحري وريح الشلوق مجتمعين أن يقودا إليها، حالة تهيج وإنهاك ممتزجين. تصبب من مسامه عرق قلق. لم يعد يرى، ضاق



Twitter: @ketab_n

صدره، صار يرجف من الحمى، وتنبض شرايينه تحت أعلى رأسه. هرب من الشوارع التجارية حيث الجمهور واجتاز الجسور ليبلغ أزقة الأحياء الفقيرة. أزعجه هنالك الشحاذون، وكانت روائح القنوات الكريهة تقطع تنفسه.

جلس في ساحة هادئة، أحد تلك الأمكنة التي تعطي انطباع نسيان وعزلة مسحورة وتكثر في قلب البندقية. جلس ليرتاح على مثابة بئر، مسح جبينه وأدرك أن عليه مغادرة البلاد.

جرى البرهان للمرة الثانية، والآن دون جدال، أن تلك المدينة ضارة جداً بصحته، على تلك الدرجة من الحرارة. إن الإصرار رغم ذلك على البقاء يبدو غير معقول، واحتمال انقلاب مفاجئ للريح غير أكيد إطلاقاً. كان ينبغي اتخاذ قرار سريع. يستحيل أن يعود إلى بيته منذ الآن: لم يكن مسكنه معداً للصيف ولا للشتاء. إلا أن البحر والشاطئ لم يكونا موجودين فقط في البندقية. يمكن العثور عليهما في أمكنة أخرى بدون ملحق البحيرة الساحلية وروائحها النتنة.

تذكر شاطئاً صغيراً على مقربة من تريست امتدحه بعضهم أمامه. لماذا لا يقصده؟ ودونما إبطاء حتى يكون للتغيير الجديد لمقر الاصطياف معناه؟ إعتبر المسألة محسومة ونهض. أخذ غوندولاً في محطة المراكب اللاحقة نقله إلى سانت مارك، تابعاً متاهة الزوارق الغامضة، محاذياً العمارات ذات الشرفات الأنيقة التي تلاصقها أسود منحوتة، دائراً حول زوايا جدران لامعة، متخطياً واجهات قصور كئيبة تعكس لافتات عريضة في اضطراب الأمواج. لم يبلغ المكان المقصود دون عناء، ذلك ان الغوندولي المتواطئ مع بائعي دنتيلا ونافخي زجاج،



Twitter: @ketab_n

كان يحاول في كل مكان أن ينزله لزيارة محلات والتسوق منها، وفي كل مرة كان يشرع عبور البندقية العجيب بممارسة سحره. كانت المركنتيلية الجشعة لملكة البحار المخلوعة تأتي بإلحاح كريه لتبدد نشوة الخيال.

أعلن آشنباخ فور عودته، وحتى قبل أن يتعشى، أن ظروفاً طارئة تضطره للرحيل في الصباح الباكر. أبدى القائمون على الفندق أسفهم وصفوا حسابتهم معه. أم هو فتعشى وأمضى السهرة الفاترة يقرأ الصحف على كرسي هزاز فوق المصطبة خلف الفندق. أعد قبل أن يأوي إلى الفراش حقائبه بكل عناية.

أثار احتمال التغيير ذلك اضطرابه، وكان نومه رديئاً. حين فتح النافذة صباحاً، كانت السماء ما تزال مغطاة بالغيوم، إلا أن الهواء بدا منعشاً، وقد شعر حالاً بالأسف يخامره. ألم تكن تلك الإجازة التي أعطاها ناجمة عن طيش وخطأ، نتيجة حالة لامسؤولية مرَضية؟ لو أنه أجل قراره قليلاً ، لو أنه بدل اليأس دفعة واحدة، قبل احتمال تكيف مع المناخ البندقاني أو تحسن في الطقس، لكان له الآن أمل ببعد ظهر على الشاطئ شبيهٍ ببعد ظهر اليوم السابق، عوض الإثارة والارتباك. تأخر كثيراً! كان عليه أن يستمر في إرادة ما أراده البارحة. إرتدى ثيابه ونزل في الثامنة إلى الطابق الأرضي ليتناول الفطور.

لم يكن هناك أحد بعد في غرفة الطعام لحظة دخوله. إلا ان القاعة امتلأت شيئاً فشيئاً فيما ينتظر على طاولته الفطور المطلوب. بينما كان يشرب الشاي، رأى الفتيات البولونيات يدخلن تصحبهن مربيتهن: قصدن طاولتهن في الزاوية إلى جانب النافذة، رصينات، نديات،



Twitter: @ketab_n

وأعينهن محمرة بعد بفعل الزينة الصباحية. جاء البواب بعد ذلك حالاً يخطره، وهو يمسك قبعته بيده، أنه آن أوان الرحيل. كانت السيارة تنتظره لتنقله مع مسافرين غيره إلى فندق إكسلسيور من حيث يقوم الزورق الآلي بنقل المسافرين إلى المحطة عبر القناة التابعة للشركة. آن الأوان.... إلا أن آشنباخ وجد أن لا شيء يدعو للاستعجال. كانت ما تزال باقية ساعة كاملة حتى موعد انطلاق قطاره. إغتاظ من عادة الفنادق أن تصرف باكراً جداً نزلاءها الذين يرحلون، وأفهم البواب أنه يرغب في تناول الفطور بهدوء. إنسحب الرجل على مضض ليعود بعد ذلك بخمس دقائق. يستحيل على السيارة أن تنتظر وقتاً أطول. «إذن! فلتمض بحقيبتي» أجاب آشنباخ نافد الصبر. أضاف أنه سيستقل في الوقت المناسب الزورق الآلي وطلب أن يترك له تدبير أموره بنفسه. أنحنى المستخدم منصاعاً. أما آشنباخ، الذي سر لكونه تخلص من الإلحاحات المزعجة، فأنهى فطوره على مهل، حتى أنه أرسل الخادم في طلب جريدة. كان وقت الرحيل قد حان حقاً حين نهض أخيراً. ولقد شاءت الصدفة أن يدخل تادزيو في اللحظة ذاتها عبر الباب الزجاجي.

كان متوجهاً إلى طاولة ذويه حين صالب النزيل المتأهب للرحيل. غض عينيه بتواضع، أما ذلك الرجل الأشيب ذي الجبهة العالية، ليعود فيفتحهما حالاً، وفقاً لعادته اللطيفة، ويرفعهما واسعتين وحنونتين نحوه، ثم عبر سريعاً. وداعاً يا تادزيو! فكر آشنباخ في سره، وأضاف بصوت خافت: «باركك الله!». باشر بعد ذلك بإجراءات الرحيل، وزع البقشيش، تقبل تحيات الوداع من المدير الصغير ذي الردنغوت


Twitter: @ketab_n

الفرنسي والسلوك الرصين، وغادر الفندق على قدميه، كما سبق وقدم إليه، يتبعه الخادم حاملاً حقائب اليد، ماضياً عبر الممر الأبيض المزدان بالأشجار المزهرة باتجاه رصيف الركوب الواقع في الجانب الآخر من الجزيرة. وصله واتخذ له مكاناً.. أما الباقي فكان طريق الجلجلة، نزولاً في كل هاويات الأسف.

كان ذلك هو العبور المألوف مجتازاً البحيرة الساحلية عبر القناة الكبرى، مروراً أمام سانت مارك. جلس آشنباخ على المقعد نصف الدائري في المقدمة، معتمداً بذراعه على المسند وقد وضع يده على عينيه يحميهما من أشعة الشمس. ثم تخطى الحدائق العامة. إنفتحت البيازيتا مرة أخرى في روعتها الأميرية لتختفي حالاً، ثم ظهر صف القصور الفخيم. وعند منعطف القناة امتد عقد جسر ريالتو المرمري الرائع. تمزق قلب المسافر لدى ذلك المشهد. كان يتنشق الآن عميقاً وفي انعطاف أليم جوَّ المدينة هذا، تلك الرائحة النتنة للبحر الراكد التي جعلته يستعجل الرحيل. هل يمكن أن يكون لم يعرف، أن يكون نسي كم قلبه متعلق بكل هذا؟ تساءل في ذلك الصباح بأسف غامض وشك خفيف إذا كان لقراره ما يبرره. تحول ذلك الشك الآن حزناً، ألماً حقيقياً - ضيقاً مريراً إلى درجة أن عينيه اغرورقتا مراراً بالدموع - كيف تخيلها على تلك الحال؟ ما كان يشق عليه التسليم به، ما كان يبدو له أحياناً غير مقبول إطلاقاً، فهو فكرة أنه لن يرى البندقية بعد الآن وأن ذلك الرحيل وداع نهائي. بما أنه لاحظ للمرة الثانية أن تلك المدينة تمرضه، بما أنه كان يرى نفسه للمرة الثانية مضطراً أن يغادرها سريعاً، فقد كان عليه أن يعتبرها منذ ذلك الحين محل إقامة مستحيلاً، ممنوعاً، يتخطى



Twitter: @ketab_n

قواه، من الجنون العودة إليه مرة ثانية. كان يشعر أنه إذا ما سافر الآن فسوف يمنعه الخجل والكبرياء من أن يرى مرة أخرى المدينة المحبوبة التي خانته بنيته مرتين حيالها، وإذا بذلك الخلاف، ذلك الصراع بين ميل في الروح من جهة وقوى الجسد من جهة أخرى، يبدو فجأة لهذا الرجل الكهل خطيراً وشاقاً، والهزيمة البدنية مذلة وغير مقبولة، إلى درجة لم يفهم معها الخضوع الطائش الذي قرر البارحة أن يستسلم له ويقبل به دون مقاومة جدية.

إلا أن المركب البخاري اقترب من المحطة، وعظم الألم والحيرة إلى حد الاضطراب الشديد. وسط ذلك التمزق الذي عاناه، بدت له استحالة الرحيل وفي الوقت ذاته استحالة العودة إلى الوراء. في حالة التمزق تلك دخل المحطة. كان الوقت متأخراً جداً ولم يعد للمسافر دقيقة يضيعها إذا أراد ركوب القطار. إنه يريد ولا يريد. إلا أن الوقت يضغط وينخس. أسرع للاستحصال على بطاقة، وفتش حوله في جلبة القاعة الواسعة عن مستخدم الشركة الفندقية. جاء هذا وأعلن أن الحقيبة الضخمة قد سجلت على أساس نقلها إلى كوم. إلى كوم؟ كانت النتيجة بعد تبادل سريع للشروح، للأسئلة الغاضبة والأجوبة المرتبكة، إن الحقيبة التي جرى الخلط بينها وبين رزم أخرى تم إرسالها من مكتب إرسال فندق إكسلسيور في اتجاه خاطئ كلياً.

وجد آشنباخ صعوبة في الحفاظ على الهيئة الوحيدة المناسبة، نفخ صدره فرح مجنون، سرور لا يوصف، وهزه في مثل تشنج. أسرع المستخدم لاستيقاف الحقيبة، إذا أمكن، إلا أنه عاد كما كان متوقعاً بخفي حنين. أعلن آشنباخ حينئذ أنه لا يرغب في المضي بدون أمتعته



Twitter: @ketab_n

وأنه قرر العودة إلى فندق الحمامات ينتظر عودة حقيبته. سأل إذا كان الزورق الآلي التابع للشركة واقفاً أمام المحطة، فأكد الرجل أنه راسٍ أمام الباب. أجبر بطلاقته الطليانية الموظف المولج بقطع التذاكر أن يستعيد التذكرة التي سبق وقطعها، وأقسم طالباً الإبراق وعدم إهمال شيء من أجل استعادة الحقيبة في مهلة قصيرة بأي ثمن، وهكذا حصل ذلك الشيء الفريد، أي رؤية المسافر وهو يجتاز بعد عشرين دقيقة من وصوله، القناة عائداً إلى الليدو.

يا لها من مغامرة غريبة لا تصدق، مذلة وذات طرافة خيالية: أن يعود المرء بفلتة من فلتات القدر إلى الأماكن التي انفصل عنها إلى الأبد بحزن عميق، ويجد نفسه فيها مجدداً قبل أن تنصرم ساعة! كان الزورق الصغير العديم الصبر يطير إلى هدفه، والزبد يعلو مقدمته، وهو يتلوى برشاقة مهرج بين الغوندولات والبوابير، فيما يخفي راكبه الوحيد تحت ظاهر انزعاج مستسلم الحماس المنتصر الذي يلطفه قلق شقي أفلت من المنزل الوالدي. كانت ضحكة داخلية تدغدغه باستمرار لدى التفكير بذلك الحظ السيء الذي ـ كما كان يقول في سره ـ ما كان يمكنه أن يصيب بصورة أكثر مراعاة واحداً من المحظوظين. ينبغي أن يقدم بعض التفسيرات ـ فكر في سره ـ أن يواجه أنظاراً مشدوهة، ثم يترتب كل شيء. لقد تم تجنب مصيبة، إصلاح خطأ مبين، وكل ما اعتقد أنه يتخلى عنه، كان يقدم إليه مجدداً وسوف يمتلكه حسب الطلب.

باختصار، هل كان ذلك وهماً سببته سرعة المركب أم ـ لحسن الحظ ـ الريح البحرية التي تعصف الآن عكس ما كان متوقعاً. كانت الأمواج تضرب الجدران المسلحة بالباطون للقناة الضيقة المحفورة عبر الجزيرة



Twitter: @ketab_n

حتى فندق إكسلسيور. كانت في انتظاره سيارة أقلته مباشرة إلى فندق الحمامات عبر الطريق المطلة على البحر المزبد. جاء المدير الصغير المشورب بحلته السموكينغ ونزل درج المدخل للسلام عليه.

عبَّر بنبرة ملاطفة مرهفة عن أسفه للحادث الذي قال عنه إنه جد مزعج له وللفندق، لكنه أيد قرار آشنباخ أن ينتظر هنا استعادة حقيبته.

صحيح أن حجرته أعطيت لأحد النزلاء، إلا أن ثمة واحدة أخرى لا تقل عنها جودة رهن تصرفه. «حظ سيء أيها السيد»، قال صبي المصعد السويسري مبتسماً أثناء الصعود. وهكذا أعيد الجندي الفار إلى حجرة شبه مماثلة للسابقة ترتيباً وتأثيثاً.

جلس آشنباخ، بعد أن صف محتوى حقيبة سفره على مقعد قرب النافذة المفتوحة، مرهقاً تماماً وزائغاً بفعل إثارة ذلك الصباح الفريد. إصطبغ البحر بالخضرة وبدا الجو أخف وانقى والشاطئ بكابيناته وزوارقه أكثر تلوناً، مع أن السماء بقيت رمادية. نظر إلى الخارج ويداه مضمومتان بين ركبتيه، مسروراً لكونه هناك مجدداً، لكن هازاً رأسه في الوقت ذاته وهو يفكر بتقلبه وجهله حقيقة رغباته. بقي ساعة في ذلك الوضع، مرتاحاً لأحلام يقظة غامضة . لمح حوالي الظهر تادزيو في حلة من نسيج مضلع بشريط حاشية أحمر، عائداً من البحر إلى الفندق عبر حاجز الشاطئ والجسيرات الخشبية. عرفه آشنباخ حالاً، من مكانه العالي، قبل أن يركز نظره عملياً عليه، وكان على وشك أن يفكر: عَجَباً! تادزيو، ها عدت أنت أيضاً! إلا أنه شعر في الوقت ذاته بذلك الترحيب التافه يسقط في الصمت إزاء إعلان قلبه الصادق، شعر بالسعير في أوردته، بفرخ وألم روحه، وفهم أن تادزيو هو الذي



Twitter: @ketab_n

جعل رحيله على تلك الدرجة من الصعوبة.

بقي جالساً بصمت، في ذلك المكان الذي لم يكن أحد يستطيع أن يراه فيه من تحت، وفحص ضميره. كانت ملامحه قد انتعشت، إرتفعت أجفانه وتوترت شفتاه في ابتسامة تعني الانتباه والفضول المرهف. رفع رأسه بعد ذلك، وبذراعيه اللتين كانتا تتدليان دون حراك من جانبي المقعد، مثل ببطء الحركة التي تضم وترفع، مديراً الكفين إلى الأمام، كما لتصوير عملية فتح الذراعين وبسطهما في حركة ترحيب يقظ واستقبال هادئ.


Twitter: @ketab_n

# 4

الآن وفي كل يوم، كان الإله ذو الوجه المضطرم، يقود وهو عار كدريجته* الملتهبة عبر أجواز السماء، فيما يتطاير شعره الذهبي في الريح الشرقية الهائجة. يمتد بياض حريري باهر على الأماكن البعيدة من البحر وعلى الموج الصاخب الكسول. أما الرمل فيلمع. كانت أقمشته أشرعة بلون الصدأ ممدودة أمام الكابينات، تحت الأثير اللازوردي ذي الاهتزازات الفضية، وعلى الظل الذي كانت تلقيه كان المستحمون يمضون ساعات الصباح. إلا أن السهرة لم تكن أقل إمتاعاً فيما تفوح العطور الشذية من نباتات المتنزه، وتنجز مجموعات النجوم دوراتها الفخيمة في الأعالي، ويصعد همس البحر الغائص في الليل بهدوء نحو الأرواح يسر إليها بمخبآته الغامضة. كانت تلك المساءات تحمل في ذاتها الوعد الفرح بنهار جديد من شمس وأوقات فراغ، منظم بيسر ومزين بالإمكانات التي لا تحصى والتي تجمعها صدفة فاتنة في متناول اليد.

---

* مركبة بدولابين تجرها أربعة جياد كان القادة الرومان المنتصرون يعودون بها (م).



Twitter: @ketab_n

لم يكن النزيل الذي استبقاه هناك حظ سيء مؤات جداً، ليرى في رجوع أمتعته سبباً لرحيل جديد. لقد خضع خلال يومين لبعض الحرمانات وكان يحضر لتناول وجباته في القاعة الكبرى بثياب السفر. ثم حين أنزلت الحقيبة الثقيلة التائهة في غرفته أخيراً، أفرغ محتواها بدقة، وملأ بها الخزانة والجوارير، مصمماً على البقاء فترة غير محدودة، راضياً لأن في وسعه قضاء الساعات على الشاطئ بثياب حريرية خفيفة، والظهور عند العشاء بثياب السهرة على الطاولة المحفوظة له.

أصبحت تفتنه رفاهية ذلك الوجود المنتظم. سرعان ما سحرته هدهدة تلك الحياة اللطيفة اللامعة. إية إقامة فريدة هي تلك التي تجمع مفاتن دار مريحة على شاطئ في الجنوب إلى الجيرة المباشرة والمألوفة للمدينة الغريبة والعجيبة! لم يكن آشنباخ يبحث عن المتع. إذا كان الأمر يتعلق بالتعطيل، بالإستسلام للراحة، بالانصراف إلى اللهو، فسرعان ما أحس بقلق وقرف كانا يعيدانه إلى الجهود السامية، إلى العبودية المقدسة والصارمة للعمل اليومي. وحده ذلك المكان كان يسحره، يبدد إرادته، يغمره بالسعادة. أحياناً عند الضحى، تحت خيمة كابينته، وهو يسرح بصره في البحر اللازوردي الحالم، أو خلال الليل الفاتر، متكئاً على مساند الغوندول الذي يعيده من ساحة سانتمارك حيث توقف طويلاً إلى الليدو حيث ينزل، تحت ضياء السماء المنجمة، فيما تنطفئ خلفه الأضواء البراقة وأنغام السيرينادا الذابلة، كان يتذكر دارته الجبلية، مسرح كفاحه إبان الصيف، حيث كانت تنزل الغيوم عبر بستانه، وتطفئ عواصف رهيبة في المساء أضواء المنزل، وحيث كانت الغربان التي يتولى إطعامها تدور مرعوبة في ذرى أشجار



Twitter: @ketab_n

الصنوبر البري. كان يشعر أحياناً إذ ذاك أنه ينتقل إلى منطقة فردوسية على حدود الأرض، ثمة حيث تُعَدُّ للناس حياة غبطة، حيث لا ثلج، ولاصقيع، لا عواصف ولا أمطار مدرارة، لكن حيث يترك أوقيانس عذوبة نفسه اللطيفة تهب، وتنصرم الأيام في أوقات فراغ لذيذة، دون هم أو جهد، منذورة كلياً للشمس وعبادتها.

كان آشنباخ يرى تادزيو كثيراً، باستمرار تقريباً. إن ضيق المساحة وطريقة استخدام الوقت المفروضة على الجميع كانا يجعلان المراهق الجميل يتواجد طيلة النهار قربه، خلا انقطاعات نادرة. كان يراه، يلتقيه في كل مكان، في الطابق الأرضي من الفندق على متن المركب الذي يقوده، والنسيم العليل يداعبه، من الشاطئ إلى المدينة إلى الشاطئ، في الساحة الرائعة، وغالباً أيضاً في الشوارع والأزقة حين يواتيه الحظ. إلا أن الصباح على الشاطئ هو الذي كان يقدم له بانتظام مناسب جداً فرصة مديدة للاستغراق في دراسة خاشعة للظهور اللطيف. لا بل إن انتظام السعد ومؤاتاة الظروف المتجددة يومياً كانا يطفحان كيل غبطته وبشاشته، يجعلان إقامته جد عزيزة على قلبه، ويتركان الأيام الجميلة تتتالى في تسلسل على أفضل ما يكون من الانتظام.

كان ينهض باكراً جداً كما العادة حين تهمزه الحاجة إلى العمل، وكان بين أول من يصلون الشاطئ، حين تكون الشمس ما تزال لطيفة والبحر الباهر ببياضه غائصاً في أحلامه الصباحية. يحيي حارس الحاجز ببشاشة ويلقي تحية أليفة على ذلك المتشرد ذي اللحية البيضاء الذي أعد محله، مد قماشته السمراء، وسحب أثاث الكابينة إلى المصطبة، ثم يأخذ مكانه. تمر ثلاث أو أربع ساعات يشعر أنها ملكه،



Twitter: @ketab_n

يسعد خلالها برؤية تادزيو، فيما تتخذ الشمس الطالعة في السماء حدة مرهوبة، وتقتوتم زرقة البحر أكثر فأكثر.

كان يراه آتياً من جهة الشمال، على امتداد الشاطئ، ينبثق من بين الكابينات خلفة، أو يلاحظ أحياناً بغتة، ليس بدون انفعال مغتبط، أنه فاتته لحظة وصول المراهق الذي أصبح الآن هناك، بزي الاستحمام الأزرق والأبيض، لباس الشاطئ الوحيد لديه الآن، والذي عاد إلى انشغالاته المعتادة في الشمس والرمل وإلى العبث المحبب والبطالة الهائجة تلك التي كانت في الوقت ذاته لعباً واستراحة، متعة تسكع وتخبط في الوحل واستخدام للرفش، مطاردة وإمساك، سباحة وتمدد. وإلا أن السيدات الجالسات على المصطبة كن يراقبنه وينادينه، يدوي صوتهن باسمه: «تادزيو! تادزيو» وكان يهرع إليهن بحركات إيمائية، يقص عليهن مغامراته ويريهن صيده: أصفاداً، أحصنة بحر، ميدوزات* وسلاطعين تتقدم جانبياً بقفزات.

لم يكن آشنباخ يفهم كلمة مما يقول، وربما الأشياء الأكثر تفاهة. إلا أن ذلك كان يرن كميلوديا حنون وغامضة في أذنيه. هكذا لأن الفتى يتكلم لغة أجنبية، يكتسب كلامه قيمة الموسيقى. كانت شمس مجيدة تنشر عليه ضوءاً باذخاً، ويشكل أفق البحر السامي على الدوام خلفية اللوحة ويبرز جمالها.

سرعان ما أصبح المتأمل يعرف كل خطٍ وكل مسلكٍ لذلك الجسد المعروض بتلك الدرجة من الحرية، بوضوح على تلك الدرجة من

---

* حيوانات هلامية بحرية تضيء ليلاً.



Twitter: @ketab_n

القوة. كان يحيي يفرح متجدد دائماً كلاً من الكلمات التي أصبحت مألوفة لديه، ولم يكن ينتهي من الإعجاب بها بشهوانية حنون. كان ينادي الفتى لتحية زائر يسلم على السيدات أمام الكابينة. فيتراكض، خارجاً أحياناً من بين الأمواج، مبللاً تماماً، يرفع شعره عن وجهه، وفيما يمد يده واقفاً على ساق بينما القدم الأخرى تكاد تلامس الأرض برؤوس الأصابع، يدور بجسده بحركة مطواعة ذات روعة لا متناهية، حركة انتظار أنيقة، ارتباك محبب، رغبة في الإعجاب تأدية لواجب رجل شريف. كان ممدداً على الأرض في مرار أخرى، وصدره ملفوف بقميص الحمام، فيما ذراع منحوتة بلطف ترتفق الرمل، والذقن في باطن اليد. كان المدعو «جاشو» مقرفصاً إلى جانبه يلاطفه، ولا يمكن تخيل شيء أكثر سحراً من ابتسامة العينين والشفتين التي كان الأمير الصغير يرفع معها نظره نحو متملقه المتواضع. أو من رؤيته واقفاً على شاطئ البحر وحيداً، بعيداً عن أقاربه، وقريباً جداً من آشنباخ، مستقيماً ويداه مصلبتان خلف عنقه يتأرجح ببطء على رؤوس الأصابع، ويغيب في أحد أحلام اليقظة، فيما تهرع موجات صغيرات تغسل أصابع رجليه. كان شعره العنبري يسترسل ضفائر رقيقة على صدغيه وعلى امتداد عنقه، وتجعل الشمس الزغب يلمع ما بين عظمي الكتفين. يظهر ارتسام الأضلاع اللطيف وتساوق الصدر عبر الغلاف الملتصق بالتجويف الصدري. كان الإبطان يزالان أملسين كإبطي تمثال، وباطن الركبتين لماعاً تجتازه شبكة أوردة مزرورقة يبدو باقي الجسم إزاءها مصنوعاً من مادة أكثر ضياء.

أي نظام، أي دقة فكر تعبر عن نفسها في ذلك الجسم المديد الكامل



Twitter: @ketab_n

ذي الجمال الفتي! لكن ألم تكن الإرادة الصارمة والنقية، التي استطاع عملها الغامض أن يلد هذا العمل الفني الإلهي، معروفة لدى فنان كآشنباخ، ألم تكن مألوفة لديه؟ ألم تكن تلك الإرادة تملك فيه أيضاً، حين يستخلص من الكتلة المرمرية للغة، وهو ممتلئ بشغف واع، الشكل الخفيف الذي ظهرت له رؤياه والذي قدمه للناس تمثال جمال فكري ومرآة له؟

تمثال ومرآة! عانقت عيناه الطيف النبيل الذي كان ينتصب هناك على ضفة الشفق، واعتقد بانخطاف مستثار أنه فهم بتلك النظرة جوهر الجمال، الشكل من حيث هو فكر إلهي، الكمال الوحيد والصرف الذي يعيش في الروح، والذي كانت صورة إنسانية عنه قائمة هناك كرمز صاف ومحبب يفرض العبادة. كانت تلك هي النشوة! إستقبلها الفنان الشائخ دون تردد، وبشراهة. أشتغل خياله، وغلت أعماق ثقافته، فجرت ذاكرته أفكاراً قديمة جداً، منقولة كأساطير عتيقة إلى شبابه، لم يؤججها هواه حتى ذلك الحين أبداً من جديد. أليس مكتوباً أن الشمس تحرف انتباهنا عن الأشياء الذهنية إلى الأشياء المادية؟ إنه يطيش - حسبما كتب الفيلسوف الإغريقي - يسحر الفطنة والذاكرة بصورة تنسى معها الروح الملتهية وضعها الحقيقي وتتعلق بأجمل الأشياء التي تضيئها الشمس، بحيث لا تجد فيها بعد القوة على الارتفاع إلى اعتبارات أسمى إلا بعون الجسد. كان الإله حب ينافس في الحقيقة علماء الرياضيات الذين يعرضون للأولاد قليلي الموهبة صوراً ملموسة لأشكال مجردة: كذلك فإن الله يستخدم، ليجعلنا نرى ما هو مفارق للمادة، شكل المراهقة ولونها الذي يزينه، ليجعله أداة ذكرى، بكل



Twitter: @ketab_n

إشعاع الجمال، ويحدث هكذا ونحن ننظر إليه أن نلتهب بأمل أليم.

هكذا كان يفكر وسط حماسه، وتلك هي العواطف التي كان في متناولها. نسجت له نشوة البحر والشمس المحترقة صورة خلابة. شاهد الدلب القديم غير بعيد عن أسوار أثينا، تلك الأفياء المقدسة المفعمة بشذا الجنيبات الزاهرة، المزينة بالنذور والتقادم التقية على شرف الحوريات وأشيلوس. كان الجدول الصافي يجري تحت الشجرة ذات الأغصان الواسعة، في مجرى حصى لماع، فيما تغني الزيزان أغنيتها الحادة. لكن على العشب المنحدر بتؤدة، حيث يمكن إبقاء الرأس مرفوعاً فيما الجسم نائم، كان رجلان متمددان، محتميان هنالك من حرارة النهار: أحدهما مكتهل وبشع، والآخر شاب وجميل، الحكمة قرب الروعة. وبمداعبات ونكات مغرية، كان سقراط يعلم تلميذه فيدروس حول الرغبة والفضيلة. كان يحدثه عن الانفعال الغامض الذي يفاجئ الإنسان الحساس حين تبصر عيناه رمزاً للجمال الأبدي. يكلمه على شهوات الدنيوي والخبيث الذي ليس بوسعه تصور الجمال عندما يرى صورته، والذي ليس قادراً على الاحترام. يكلمه على القلق الديني الذي يشعر به رجل النخبة لدى ظهور وجه إلهي، جسد كامل، يظهره مرتجفاً، هائجاً، يكاد يجرؤ على النظر، كله احترام لمن يملك الجمال، مستعداً للتضحية في سبيله كما في سبيل تمثال، لو لم يخش أن يعتقده الناس مجنوناً. ذلك أن الجمال، يا صديقي فيدروس، هو وحده محبب ومرئي في آن معاً. إنه ـ ولتصغ جيداً ـ هو الشكل الوحيد لما يفارق المادة الذي بوسعنا التقاطه بالحواس والذي يمكن لحواسنا أن تتحمله. ماذا عسانا نصير لو حدثت الأمور على غير هذا


Twitter: @ketab_n

المنوال، وإذا أراد الإلهي، العقل والفضيلة والحقيقة أن تظهر لحواسنا! أليس صحيحاً أننا كنا لنصبح معدومين وذائبين حباً، كما حدث لسيميلي في غابر الزمان أمام وجه زوش؟ هكذا الجمال هو الطريق التي تقود الإنسان الحساس إلى الروح، فقط الطريق، وسيلة وحسب، يا صغيري فيدروس.. ثم عبر عما كان لديه ليقوله من أكثر الأشياء حذاقة، الغاوي المحتال، يعني أن من يحب أكثر ألوهة من المحبوب، لأن الله موجود في الأول، لكنه غير موجود في الثاني، وهي ربما الفكرة الأكثر حناناً والأكثر سخرية التي جرى يوماً تصورها والتي ينبثق منها كل الخبث، ولذة الرغبة الأكثر خفاء. إن الفكرة التي تستطيع أن تصير كلها شعوراً، الشعور الذي بوسعه أن يصبح كله فكراً، يصنعان سعادة الكاتب. إن الفكرة المستولية على القلب، والشعور المرتفع إلى الدماغ، اللذين كانا ينتميان إلى الحالم المتوحد ويطيعانه في ذلك الحين، كانا شبيهين: كان يدري، يشعر أن الطبيعة ترتجف لذة حين ينحني الفكر كتابع أمام الجمال. إمتلكته فجأة رغبة في الكتابة. يقال إن إيروس يحب البطالة حقاً ولم يخلق إلا لها. لكن إثارة ضحيته كانت عند ذلك الطور من الأزمة متجهة نحو الإنتاج. لا تهم المناسبة. إن تحقيقاً حول إحدى المشكلات الكبرى الحارقة للحضارة والذوق جرى إطلاقه في العالم الثقافي، ولقد تلقى الأسئلة بعد رحيله. كان الفاعل مألوفاً لديه. كانت تلك مسألة معاشة بالنسبة إليه. فجأة صارت رغبته بتسليط ضوء فعله عليه لا تقاوم. وكانت رغبته تتجه إلى العمل بحضور تادزيو، إلى اتخاذ الولد ذاته كمثال فيما هو يكتب، إلى ترك أسلوبه يتبع خطوط ذلك الجسد الذي يبدو له إلهياً، وإلى أن ينقل جماله



Twitter: @ketab_n

إلى حقل الروح كما حمل النسر في الماضي الراعي الطروادي إلى الأثير. لم يحس يوماً بلذة الكلمة verb بصورة أكثر متعة، ولم يفهم مرة إلى ذلك الحد أن الإله إيروس يعيش في الكلمة، كما أحس بذلك وفهمه أثناء الساعات الخطرة واللذيذة التي كان فيها جالساً إلى طاولته الخشنة، في مواجهة معبوده الذي كان صوته الموسيقي يبلغ أذنه، يصوغ على صورة تادزيو الجميل مقالته القصيرة، صفحة ونصفاً من النثر المتقن الذي كانت نقاوته ونبله وقوته المهتزة ستثير في مهلة قصيرة العديد من المعجبين. إنه حسن بالتأكيد ألا يعرف الناس سوى الرائعة، وليس بداياتها ، ليس شروط تكوينها وظروفه. غالباً ما تخيب معرفة المنابع التي نهل منها الفنان إلهامه آمال الجمهور وتحرفه عنه وتلغي هكذا تأثيرات الكمال. أية ساعات عجيبة! أية مزواجة غريبة وخصبة للروح والجسد! حين شد آشنباخ على ورقته وترك الشاطئ، أحس بنفسه مرهقاً، محطماً، وكان يبدو له أنه يسمع اتهام ضميره كما بعد فجور.

حدث في الصباح الباكر التالي أنه، فيما كان يغادر الفندق، شاهد من درج المدخل تادزيو وهو في طريقه إلى البحر يقترب من الحاجز بالضبط وحيداً. إن الرغبة، مجرد فكرة استناح الفرصة للتعرف بسهولة ومرح إلى ذلك الذي سبب له، دون أن يدري، ذلك القدر من الحماس والانفعال، لتوجيه الكلام إليه والتلذذ بجوابه ونظراته، كانت تنطرح بشكل طبيعي وتفرض نفسها. كان تادزيو الجميل يسير الهوينى، وبالإمكان ملاقاته. لذا فقد حث آشنباخ الخطى. بلغه على طريق الألواح الخشبية خلف الكابينات، أراد ملامسة رأسه أو كتفه، وعلى شفتيه كلمة تافهة، تعبير مهذب بالفرنسية. أحس إذ ذاك بقلبه



Twitter: @ketab_n

يخفق كمطرقة، ربما جزئياً بفعل مشيته المتسارعة، وبأنه لن يستطيع، وهو يكاد يختنق، أن يتكلم إلا بصوت ضائق ومرتعش. تردد، حاول السيطرة على نفسه، وفجأة، خشية أن يكون لحق بالمراهق الجميل طويلاً عن كثب، خوفاً من لفت انتباهه، من نظرته المستجوبة حين يستدير، استعد لوثبته الأخيرة، توقف متراجعاً عن مشروعه ومر مطأطئ الرأس بخطوات سريعة.

«فات الأوان!»، هكذا فكر في تلك اللحظة. فات الأوان! هل فات الأوان فعلاً؟ ذلك المسعى الذي ترك فرصة القيام به تمر كان يمكن أن يؤدي بسهولة إلى حل سهل وسعيد، إلى صحو ملائم من سكرته. لكن لا شك أن الفنان الشائخ كان بلغ حد أنه لم يعد يريد أن يصحو، وأنه يلتذ بسكره. من بوسعه أن يُشخِّص جوهر روح فنان وبصمتها الخاصة؟ كيف تحليل المزيج العميق من غريزة الانضباط والإباحة المزدوجة الذي تتألف منه دعوته! أن يكون المرء عاجزاً عن أن يريد العودة الملائمة إلى رباطة الجأش، فتلك إباحة جامحة. لم يعد آشنباخ مدفوعاً لدراسة نفسه بنفسه. لم يكن يميل به الذوق، الطريقة الذهنية الخاصة بسنه، اعتبار قيمته الخاصة به، النضج وثمرته البساطة، إلى تشريح دوافع، وإلا تحديد ما إذا كان لم ينفذ مخططه نتيجة لوسواس أو لضعف جبان. كان مرتبكاً يخشى أن يكون لاحظ شاهد ما، حتى ولو حارس الشاطئ، جريه واندحاره، ويخاف من السخرية. وكان فضلاً عن ذلك يهزأ في سره من الرعب الشديد الذي أصابه بصورة مضحكة: «إنه ذعر حقيقي»، فكر في ذاته، ذعر الديك الخائف الذي يدع جناحيه يعلقان أثناء المعركة. إنه في الحقيقة الإله بالذات الذي يحطم هكذا، في



Twitter: @ketab_n

حضرة موضوع حبنا، شجاعتنا ويحط إلى الأرض كبرياءنا. هكذا كان يثرثر، يهذي، ممتلئاً بثقة أشمخ من أن تخاف عاطفة. لم يعد يفكر بنهاية فترة الاستراحة التي منحها لنفسه. لم تخامره مرة واحدة فكرة العودة. أرسل فاستحصل على مبلغ كبير من المال. كان انشغاله الوحيد يتعلق برحيل العائلة البولونية المحتمل. إلا أنه علم وهو يستخبر عَرَضاً من حلاق الفندق، أن تلك العائلة نزلت المكان قبل قليل من وصوله هو. كانت الشمس تلفح وجهه ويديه، والهواء المالح يثيره، يضاعف قدرته على الإحساس، وكما أنه اعتاد في الماضي أن ينفق حالاً بغية إبداع عمل فني كل رأسماله من القوة التي قدمها له النوم والغذاء أو الطبيعة، كان يبذر الآن بسخاء عديم التبصر، في نشوة عاطفية، كل تجديد القوة الذي تمنحه إياه الشمس والفراغ والهواء البحري كل يوم.

كان نومه قصيراً. تفصل الأيام اللذيذة برتابتها ليال قصيرة ممتلئة اضطراباً هانئاً. كان ينسحب في الواقع باكراً جداً، ذلك إنه حين تحل الساعة التاسعة ويختفي تادزيو عن المسرح، كان يبدو له أن النهار انتهى. لكنه كان يستيقظ منذ تباشير الفجر منتفضاً بحنان. يتذكر قلبه مغامرته. لا يعود يحتمل السرير فينهض ويمضي ليجلس عند النافذة المفتوحة ينتظر شروق الشمس وهو متلفح بغطاء خفيف يقيه برد الصباح. كان الحدث العجيب يفعم روحه التي طهرها لنوم بانفعال ديني. ما تزال السماء والأرض والبحر مغمورة بالبياض الشبحي للساعة الحائرة. كانت نجمة متشاحبة تطفو في المدى الغامض. لكن هوذا نسيم يهب، رسالة من مساكن عصية تعني أن الإلهة إيبوس تركت ذراعي زوجها. كان يولد إذ ذاك ذلك الاحمرار المحبب لمناطق



Twitter: @ketab_n

السماء والأرض الأكثر بعداً، الذي يعلن الخلق المنكشف للحواس. كانت تقترب الإلهة، خاطفة المراهقين، تلك التي خطفت كليتوس وكيفالوس والتي تتمتع بحب أوريون الجميل، متحدية غيرة الأولمب بأجمعه. وعلى حدود العالم، كان يبدأ نثير ورود، صفاء وازهرار بروعة لا توصف. كانت غيوم وليدة، غير مادية، مضيئة، ترفرف كآلهة حب خانعة في البخار المزرورق والوردي. كان حجاب أرجواني ينسدل على البحر الذي يبدو كما لو يتقدم به في تماوج أمواجه. تنطلق من الأسفل سهام ذهبية نحو أعالي السماء، ويصبح الضوء حريقاً. كان الاضطرام الأحمر، الحريق المشعوعل يقتحم السماء بصمت وبقدرة إلهية، فيما يصعد إلى الأثير سُعاة فيبوس ـ أبولون المقدسون، يدوسون الفضاء بمداساتهم عديمة الصبر. كان الساهر المتوحد جالساً تحت أشعة الإله الساطعة، يسلم جفنيه مغمض العنيني لقبلة الكوكب المجيد. تعود إليه الآن مشاعر من الماضي، هموم قلب صبوبة ولذيذة، مدفونة في مجرى حياته المطبوعة بالكد الصارم، فترتسم على وجهه ابتسامة مرتبكة ذاهلة. كان يحس وهو يفكر ويحلم باسم يتكون بهدوء على شفتيه، ثم يستسلم للنعاس مرة أخرى وهو ما يزال يبتسم مرفوع الوجه نحو السماء ويداه مضمومتان على ركبتيه.

إلا أن النهار الذي يدشنه الإشراق السماوي على تلك الصورة الاحتفالية كا ن يرتفع بمجمله وينتقل إلى عالم أسطوري. من أي إقليم يأتي، من أي أصل ينبثق ذلك النسيم الذي كان يداعب فجأة خده وأذنه يلطف مقنع جداً. في مثل بوح من الملأ الأعلى؟

كانت عصابات من الغيوم الصغيرة النديفية البيضا تنتشر في



Twitter: @ketab_n

السماء، شبيهة بقطعان في مراعي الآلهة. هبت ريح أعتى، وهرعت جياد بوزايدون حروناً، ومن هنا ومن هناك كانت ثيران الإله البحري ذي الشعر اللازوردي تقفز إلى الأمام حانية قرونها وهي تخور. لكن بين ركام صخور الساحل الرملي البعيد، كانت الأمواج تقفز كعنزات لعوب. كان عالم مشوه بقداسة، ممتلئ بإله الرعاة، يحيط آشنباخ بسحره فيما يحلم قلبه بأساطير ناعمة. بقي مراراً، والشمس تنزل خلف البندقية، جالساً على مقعد في المتنزه يلاحق بعينيه تادزيو المنصرف للعب بالطابة مرتدياً لباساً أبيض بزنار ملون، ولقد كان يعتقد في ذلك الحين أنه يرى هياكنتس الذي مات لأن إلهين كانا يحبانه. لا بل كان يحس بغيرة زفير الأليمة تجاه خصمه الذي ينسى العرّاف والقوس والسيتار ليلعب على الدوام مع الفتى الجميل. كان يرى القرص، توجهه غيرة قاسية، يبلغ الرأس المحبوب. يتلقى بين ذراعيه، وهو يشحب بدوره، الجسد المتراخي، وتحمل الزهرة المولودة من الدم الثمين نقش شكواه التي لا تنطفئ.

لا شيء أكثر فرادة، أكثر إرباكاً من حالة الأشخاص الذين يعرفون الواحد الآخر بالوجه وحسب، والذين يتصادفون في كل ساعة من النهار، يراقبون بعضهم بعضاً وهم مضطرون مع ذلك تحت ضغط العادات أو مزاجهم الشخصي لتصنع اللامبالاة والالتقاء مثل غرباء دون تحية ودونما كلمة. يسيطر فيما بينهم قلق وفضول زائدان، حالة هستيرية ناجمة عن كون حاجتهم إلى التعارف والتواصل تبقى دون إشباع، يخنقها حاجز مضاد للطبيعة، وعلى وجه الخصوص كذلك نوع من الاحترام الاستفهامي. ذلك أن الإنسان يحب شبيهه ويحترمه طالما



Twitter: @ketab_n

ليس بوسعه أن يحكم عليه، والرغبة هي ناتج معرفة ناقصة. كان على آشنباخ والفتى تادزيو أن يتعارفا حتماً بشكل أو بآخر ويتواصلا، ولقد تمكن الرجل الناضج أن يلاحظ يفرح نفاذ أن تعاطفه واهتمامه لم يبقيا دون استجابة كلياً. لماذا لم يعد الفتى الجميل مثلاً يأخذ طريق الألواح الخشبية خلف الكابينات وهو ذاهب إلى الشاطئ عند الصباح، بل صار يمر على العكس أمام الآخرين على الرمل بمواجهة المكان الذي يجلس فيه آشنباخ، وأحياناً قريباً جداً منه، دون الاضطرار إلى ذلك، إلى حد أنه كان يكاد يلامس طاولته وكرسيه؟ هل كان ذلك تأثير جاذبية عاطفة سامية على موضوعها الأضعف وغير المتنبه؟ كان آشنباخ ينتظر كل يوم وصول تادزيو، وحين يأتي هذا، يتصنع الانشغال أحياناً ويترك الفتى الجميل يمر دون أن يبدو عليه أنه لاحظه. لكنه كان يرفع عينيه أحياناً وتتلاقى نظراتهما. كانت تبدو عليهما معاً في تلك الحالات علامات الصرامة العميقة. لم يكن ثمة ما ينم عن الانفعال في هيئة آشنباخ ذي الملامح الحاسمة والمفعمة كرامة. إلا أنك كنت تقرأ في عيني تادزيو فضولاً، تساؤلاً حائراً، أصبحت مشيته مترددة، يغض عينيه ثم يرفعهما بلطافة، وعندما يكون قد مر يبدو شيء ما يدل في هيئته على أن احترام اللياقات وحده يمنعه من الاستدارة إلى الخلف.

إلا أنه حدث عكس ذلك ذات مساء. لم يحضر البولونيون ولا مربيتهم العشاء في صالة الطعام الكبرى. لاحظ آشنباخ ذلك بقلق. كان يتنزه أمام الفندق بعد العشاء قلقاً جداً من غيابهم، وهو يرتدي زيه المسائي وقبعة من القش، حين رأى فجأة الشقيقات الثلاث بمشيتهن التي تشبه مشية الراهبات وبصحبة المربية، فيما يسير تادزيو على بعد



Twitter: @ketab_n

خطوات أربع خلفهن، تحت ضوء المصابيح المقوسة. كانوا بالطبع آتين من رصيف الميناء بعد أن تعشوا لسبب ما في المدينة. لا بد أنه كان ثمة قرصة برد على سطح الماء، وكان تادزيو يرتدي لباساً بحرياً أزرق قاتماً بأزرار مذهبة، ويعتمر طاقية. لم تكن تلفحه الشمس ولا هواء البحر فبقي جلده ذا لون مرمري مائل قليلاً إلى الاصفرار. إلا أنه كان يبدو أشحب في ذلك اليوم من المعتاد، إما بفعل البرد أو بسبب ضوء المصابيح الباهت الشبيه بضوء القمر. كان لحاجبيه المرتسمين بصورة متساوقة نتوآت أكثر وضوحاً، وكانت عيناه أكثر قتامة. كان يفوق جماله القدرة على التعبير فأحس آشنباخ مرة أخرى بألم ناجم عن كون اللغة قادرة على الاحتفال بالجمال لكنها عاجزة عن التعبير عنه.

لم يتوقع الظهور الغالي، حدث ذلك بصورة مباغتة، ولم يجد متسعاً من الوقت ليتحكم بهيئته، لإضفاء الاعتزاز والهدوء عليها. إرتسم على وجهه الفرح والدهشة والإعجاب بوضوح حين التقى نظره نظر من أقلقة غيابه، وفي تلك اللحظة بالذات ابتسم تادزيو، ابتسم له ابتسامة معبرة، أليفة، فاتنة ومفعمة بالاستسلام انفتحت معها شفتاه ببطء. كانت تلك ابتسامة نارسيس منحنياً على مرآة الينبوع، تلك الابتسامة العميقة المتهللة الطويلة التي يمد معها ذراعيه لإنعكاس جماله، ابتسامة تداخلها حركة مزاج خفيفة جداً، بسبب بطلان جهوده لتقبيل شفتي صورته المغريتين، ابتسامة مفعمة دلالاً وفضولاً وألماً خفيفاً مفتوناً وفاتناً. أما ذلك الذي تلقى تلك الابتسامة هبةً فقد حملها كهدية مشؤومة. إنفعل إلى حد انه اضطر للهرب من ضوء مصطبة الفندق وردهته وتوجه سريعاً نحو الجهة المقابلة، إلى ظلام المتنزه.



Twitter: @ketab_n

تلفظ في نوع من الاستياء الفريد بتوبيخات كلها حنان: «لا ينبغي أن تبتسم هكذا! أسمعت؟ لا ينبغي ان تبتسم هكذا لأي كان!». إسترخي على أحد المقاعد منشغفاً، مستنشقاً عطر النباتات الليلي. وفيما هو منحن إلى الوراء، تتدلى ذراعاه وتهزه رعشات متلاحقة، زفر صيغة الرغبة الخالدة... المستحيلة في تلك الحال، العبثية، السافلة، المضحكة، المقدسة رغم كل شيء، والجديرة بالتوقير أيضاً، زفرها هكذا: «أحبك!».



Twitter: @ketab_n

# 5

خلال الأسبوع الرابع من إقامة غوستاف آشنباخ في الليدو، أبدى عدة ملاحظات مقلقة حول ما يحيط به. بدا له بادئ ذي بدء أنه كلما كان يقترب الموسم كان يتناقص نزلاء الفندق بدل تزايدهم، فيما ينخفض عدد متكلمي الألمانية حوله، إلى درجة أن الأمر انتهى به إلى ألا يسمع على المائدة وعلى الشاطئ إلا لغات أجنبية. ثم التقط صدفة في أحد الأيام، في حوار مع المزين الذي أصبح زبونه الدائم، كلمة أثارت حيرته. لقد أشار الرجل إلى عائلة ألمانية غادرت لتوها بعد إقامة قصيرة وأضاف، وهو يواصل ثرثرته، بنية تملق: «أما أنت أيها السيد فتبقى. أنت غير خائف من الوباء. ـ من الوباء؟» أجاب آشنباخ وهو ينظر إليه. صمت الثرثار، متصنعاً الانشغال، كما لو لم يسمع السؤال. وحين كرره السائل بإلحاح، أجاب أنه لا يعرف شيئاً، وسعى لتغيير الحديث، مستعيناً بسيل دفاق من الكلام.

حدث ذلك ظهراً. توجه آشنباخ بعد الظهر على متن أحد المراكب إلى البندقية، في طقس هادئ، وتحت شمس مضنية. كانت تدفعه نزوة ملاحقة الأولاد البولونيين الذين رآهم يسلكون مع مربيتهم طريق



Twitter: @ketab_n

الجسر العائم. لم يجد معبوده في سانت مارك. لكن فيما كان يشرب الشاي، جالساً إلى طاولته المستديرة الصغيرة في الجانب المظلل من الساحة، استنشق في الجو فجأة أريجاً خاصاً، بدا له الآن أنه اشتمه شميماً مبهماً منذ أيام دون أن ينتبه لذلك، رائحة صيدلانية عذبة توحي بالبؤس والجراح وبتدابير وقاية صحية مشبوهة. حللها وتحقق منها. أنهى فنجانه وهو مخلد للتفكير العميق، ثم غادر الساحة من الجهة المقابلة للهيكل. كانت الرائحة تزداد حدة في الزقاق الضيق. ألصقت في زوايا الشوارع إعلانات مطبوعة تدعو فيها السلطات السكان بلهجة أبوية إلى الامتناع عن استهلاك المحار وبلح البحر وأخذ الحذر من مياه القنوات، خشية بعض الأمراض التي تصيب الجهاز الهضمي. كان واضحاً أن الحقيقة قد زخرفت قليلاً في التعميم الرسمي. تحلقت مجموعات صامتة على الجسور وفي الساحات ، وقد امتزج الغريب بهم، مستفهماً وحالماً.

توجه بالسؤال إلى حانوتي مستند إلى إطار الباب، عند مدخل مخزنه، بين مسابح مرجان ومجوهرات من الجمشت المزيف، مستوضحاً حول الرائحة المزعجة. قاسه الرجل بعينين كئيبتين ثم استدرك برشاقة: «إنه تدبير وقائي أيها السيد! قرار صادر عن الشرطة لا يمكن إلا تأييده. هذا الطقس الثقيل، وهذا الشلوق لا يلائمان الصحة. باختصار، إنه تدبير وقائي ربما يكون مبالغاً به...».

شكره آشنباخ وواصل سيره. وعلى متن الزورق الذي أعاده إلى الليدو، شم مرة أخرى الرائحة ذاتها.

بعد عودته إلى الفندق، توجه حالاً إلى الردهة نحو طاولة الصحف،



Twitter: @ketab_n

وفتش بين الأوراق. لم يجد شيئاً في الصحف الأجنبية. أما جرائد البلاد فكانت تورد إشاعات تشير إلى أرقام غير أكيدة وتنقل تكذيبات رسمية تشكك بصحتها. هكذا أمكن تفسير رحيل الألمان والنمساويين. أما مواطنو البلدان الأخرى، فبديهي أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً، لم يكونوا يشكون بشيء، لذا كانوا لا يشعرون بعد بقلق. «إن التعليمات تقضي بالسكوت!»، فكر آشنباخ غاضباً وهو يقذف بالصحف على الطاولة. «السكوت عن هذا!». إلا أن قلبه امتلأ في الوقت ذاته رضىً سببته المغامرة التي انخرط فيها العالم الخارجي. ذلك أن الشغف، كما الجريمة، لا يتفق مع النظام العادي، مع الراحة الرتيبة للحياة اليومية، وينبغي له أن يستقبل بسرور كل إخلال بالآلية الاجتماعية، كل انقلاب أو وباء يفجع الناس، لأنه يمكن أن يكون لديه أمل غامض بأن يجد في ذلك فائدة له. هكذا كان آشنباخ يستخلص رضى مبهماً من الأحداث المقنعة رسمياً التي كانت تجري في أزقة البندقية القذرة ـ سر المدينة الحزين الذي كان يختلط بسر قلبه هو، ذلك الذي يخشى هو الآخر انكشافه خشية عظيمة. مستسلماً لحبه كلياً، لم يكن يخاف إلا إمكانية رحيل تادزيو، وقد اعترف في قرارة نفسه، ليس دونما ارتعاب، أنه لن يكون في وسعه الاستمرار في الحياة فيما لو وقعت تلك الواقعة.

لم يعد يكتفي الآن بأن يتقبل من مجرى الحياة اليومي والصدفة نعمة رؤية تادزيو الجميل عن كثب. كان يلاحقه، يحاول مفاجأته. يوم الأحد مثلاً، لم يكن البولونيون يظهرون أبداً على الشاطئ. حزر أنهم يذهبون لسماع القداس في سانت مارك. كان مستعجلاً للذهاب إلى هناك. خارجاً من أتون الساحة، كان يدخل في الغبش المذهب للمعبد،


Twitter: @ketab_n

ويجد علة أحزانه يحضر الذبيحة منحنياً على مركع. كان إذ ذاك يقف في المؤخرة، على بلاطات الفسيفساء المتشققة، وسط الجمهور الساجد الذي يهمهم راسماً إشارة الصليب، وقد كانت فخامة الهيكل الشرقي ترهق أحاسيسه بالتذاذ. ثمة كان الكاهن المغطَّى بزين ثمينة يروح ويجيء منشداً ومؤدياً الحركات الطقسية. كانت ترتفع أمواج من البخور، محجبة الشعلات الواهية لشموع المذبح، وكان يبدو فجأة أنه يمتزج بلطافة العطر الديني الثقيل عطر آخر: رائحة المدينة الموبوءة. لكن عبر أبخرة البخور وسطوع الزين الكهنوتية، كان آشنباخ يرى صديقه الجميل، هنالك في الصفوف الأولى يدير رأسه، يبحث عنه ويجده.

حين كان يخرج الجمهور بعد ذلك من البوابات المفتوحة على الساحة المشعة، المليئة بأسراب الحمام، كان العاشق المتيم يختفي في الرواق، يختبئ، يكمن. يرى البولونيين يغادرون الكنيسة، يرى الأولاد يستأذنون أمهم بالانصراف بصورة احتفالية، فيما تتوجه هذه نحو البيازيتا Piazzetta في طريق العودة. لاحظ أن تادزيو الجميل، وأخواته اللواتي يبدو عليهن كما لو كن خارجات من الدير، والمربية يتوجهون إلى اليمين عبر باب قبة الجرس، ويسلكون طريق سوق القماش، فكان يتبعهم خفية في نزهتهم عبر البندقية، تاركاً مسافة بينه وبينهم يتقدمون بها عليه. كان مضطراً للوقوف حين يقفون، للجوء إلى مطاعم حقيرة أو متنزهات لتركهم يمرون، إذا عادوا على أعقابهم. كانوا يغيبون عن نظره، فيركض في إثرهم لاهثاً منهكاً، حين يجتازن الجسور ويدخلون في دروب قذرة، ويتحمل دقائق رعشة مميتة حين



Twitter: @ketab_n

يراهم فجاة آتين نحوه في معبر ضيق يستحيل تجنبهم فيه. لا يمكن مع ذلك القول إنه كان يتألم. كان رأسه وقلبه مفعمين بالنشوة، وخطواته تتبع الشيطان الذي يلذ له أن يدوس بالأقدام عقل الإنسان وكرامته.

كان يحدث أن يستقل تادزيو وأنسباؤه غوندولاً في مكان ما، فيحذو آشنباخ حذوهم فور مغادرتهم الشاطئ، بعد أن يكون اختفى خلف مبنى ناتئ أو ينبوع وهم يصعدون. يعطي الأمر للمجذف بصوت مخنوق وكلمات متدافعة، مع وعد ببقشيش سخي، أن يتبع خفية، وعن بُعد، ذلك الغوندول، هناك، الذي يلف بالتحديد الزاوية. ويشعر بقشعريرة في ظهره حين يؤكد له سائق المركب بالنبرة ذاتها، وبلهفة سمسار حقيرة، أنه سيخدمه، سيخدمه بوجدان.

هكذا كان يمضي، يهدهده غوندوله، وهو مستند إلى الوسادات السوداء، منزلقاً خلف المركب الأسود الآخر ذي الجؤجوء المرفوع كمنقار، الذي يجره شغفه في إثره. كان يغيب أحياناً عن نظره فيشعر بالهم والقلق. إلا أن سائقه الذي كان خبيراً، كما يبدو، بمهمات مشابهة، كان يعرف دائماً عبر مناورات ماهرة وانحرافات سريعة واختصارات أن يجعله يرى من جديد موضوع شغفه. الجو هادئ ومثقل بالعطور، والشمس ترسل أشعة حارقة عبر الأبخرة التي تصبغ السماء الرمادية. تسمع بقبقة المياه التي تضرب الرافدات والجدران. كان نداء الغوندولي، وهو تنبيه وتحية في آن معاً، يحدث باصطلاح فريد جواباً في أقاصي المتاهة الصامتة. من أعالي الجنائن المعلقة الصغيرة كانت خيمات بيضاء وأرجوانية لها رائحة اللوز تتهالك على الأسوار المتهدمة. تنعكس زخارف فتحات الشبابيك في المياه العكرة. تنزل درجات مرمر



Twitter: @ketab_n

إحدى الكنائس في الأمواج. يبسط متسول مقرفص على الدرجات، زاعق ببؤسه، قبعته، مظهراً بياض عينيه كما لو كا ن ضريراً، فيما بائع أثريات واقف أمام متجره يدعو العابر بحركات متذللة للتوقف، آملاً الاحتيال عليه. تلك كانت البندقية، العاهرة المخادعة، المدينة التي تجمع بين الأسطورة والأحبولة، والتي شهد جوها الآسن في الماضي ازدهاراً عظيماً للفنون، وألهمت النبرات المهدهدة لموسيقى ذات سحر شهواني. كان يبدو للمتنزه المغامر أن عينيه تكرعان من ينبوع اللذة الماضي، وأن أذنه تتلقى مداعبة تلك الأنغام القديمة. تذكر كذلك أن المدينة مريضة وتخفي ذلك جشعاً، وكان يراقب بشغف أكثر جموحاً الغوندول الذي يطفو هناك أمامه.

هكذا لم تعد تخطر لهذا الرجل في زيغانه فكرة أخرى أو إرادة أخرى غير أن يطارد على الدوام الموضوع الذي يلهبه، أن يحلم به في حال غيابه، وأن يوجه كلمات حنان إلى ظله بالذات، على طريقة العاشقين. كانت الوحدة في بيئة غريبة، وكنز نشوة متأخرة وعميقة يشجعانه على أن يجيز لنفسه دون وجل أو حياء أكثر النزوات صدماً. هكذا توقف ذات مساء، وهو عائد من البندقية في ساعة متأخرة من الليل، في الطابق الأول من الفندق أمام غرفة معبوده، وبقي طويلاً وهو يسند جبينه إلى مفصلة الباب في حالة سكر كلي، غير قادر عل الانفصال عنها، مجازفاً باحتمال أن يفاجأ في ذلك الوضع الأخرق الذي يعود عليه بالعار.

إلا أنه كان في حالته لحظات توقف وعودة جزئية إلى التعقل. أين أمضي؟ هكذا كان يفكر إذ ذاك هلعاً. أين أمضي؟ شبيهاً بكل رجل تلهمه مكانته الطبيعية اهتماماً أرستقراطياً بأصله وفصله، كان معتاداً



Twitter: @ketab_n

على تذكر أجداده، نجاحاته، مهنته، على التأكد في فكره من تأييدهم ورضاهم، من التقدير الذي يكنونه له. كان يفكر بهم أيضاً، الآن وفي هذا المكان، حيث تورط في مغامرة غير مقبولة إلى حد بعيد، انخرط في فجور للقلب غريب إلى حد بعيد. كان يتصور صرامة وقفتهم، الحياء الرجولي لسلوكهم، وترتسم على شفتيه ابتسامة كئيبة. ما الذي يقولونه؟ لكن يا للأسف! ماذا كانوا ليقولوا عن حياته كلها التي انحرفت عن خطهم حتى الانحطاط، عن تلك الحياة المتقوقعة في دائرة الفن التي نشر هو بالذات عنها في الماضي أحكاماً لاذعة جداً تصدر عن شاب مخلص لتراث آبائه البورجوازي، والتي تشبه مع ذلك إلى حد بعيد في الواقع حياتهم! هو أيضاً كان قد أدى الخدمة العسكرية، هو أيضاً كان جندياً ومحارباً كما العديد منهم. ألم يكن الفن حرباً، نضالاً قاسياً لا يمكن تحمله طويلاً في أيامنا هذه: حياة إنكار للذات أو عناد رغم كل شيء، حياة مثابرة تقشف جعل منها رمز بطولة مرهفة، ملاءمة مع عصرنا. كان من حقه بالتأكيد اعتبار تلك الحياة رجولية ومجيدة، لا بل كان يبدو له أن الحب الذي استولى عليه مطابق وملائم على وجه الخصوص، بصورة أو بأخرى، لحياة من مثل هذه. ألم يكن ذلك الشكل من الحب يلقى الاحترام بين باقي الأشكال لدى كل الشعوب الأكثر شجاعة، أما كان يقال إنه بفضل الشجاعة ازدهر في مدنها؟ لقد قبل العديد من القادة الأقدمين بنير ذلك الحب، ذلك أن أي إذلال لم يكن ليعتبر إذلالاً حين يأمر به إيروس، وإن أفعالاً كانت لتستوجب اللوم كعلاقات جبن فيما لو اقترفت لغاية أخرى، ركعات ، إيماناً، رجاءات ملحة وحركات ذليلة، تلك الأفعال عوض أن تعود بالعار


Twitter: @ketab_n

على العاشق، كانت تكسبه على العكس جملة من المدائح.

ذلك هو الاتجاه الذي سارت فيه روح هذا الرجل المفتون. وذلكم ما كان يحاول أن يستند إليه وكيف كان يسعى لصون كرامته. إلا أنه كان يعير في الوقت ذاته انتباهاً متفحصاً وعنيداً للأشياء الملتبسة التي تجري داخل البندقية، لمغامرة العالم المحسوس تلك التي كانت تختلط بصورة غامضة بمغامرة قلبه وتغذي في داخله آمالاً مبهمة وفوضوية. مستبسلاً في محاولة الوصول إلى معلومات أكيدة حول وضع الوباء وتطوراته، كان يتصفح بانفعال في مقاهي المدينة الصحف الألمانية التي اختفت منذ أيام عديدة من صالة القراءة في الفندق. كانت تتعاقب فيها التأكيدات والتكذيبات. يرتفع عدد حالات المرض أو الوفاة، كما يقال، إلى عشرين أو أربعين، لا بل إلى مئة أو أكثر، وأبعد قليلاً، إذا لم يجر إنكار أي ظهور للوباء بصورة جازمة، فقد كان يتم حصر ذلك في بعض الحالات المعزولة الواردة من الخارج. يجري وسط تلك الأخبار تمرير تحفظات وتنبيهات أو احتجاجات ضد اللعبة الخطرة للسلطات الإيطالية. لكن لم يكن ثمة وسيلة لبلوغ اليقين.

إلا أنه كان لدى المتوحد شعور بامتلاك حق خاص بالمشاركة في السر. وبما أنه وجد نفسه محروماً من ذلك ظلماً، فقد وجد ارتياحاً غريباً في أن يطرح على المطلعين أسئلة غرارة، وفي أن يجبرهم على الكذب جهاراً، بما أنه كان يجمع بينهم الصمت. هكذا عمد يوماً، وهو يتناول الغداء في القاعة الكبرى، إلى سؤال المدير، ذلك الرجل الصغير المرتدي ريدنغوتاً، ذي المشية الصامتة، الذي كان يمر محيياً ومراقباً بين صفوف الطاولات، والذي توقف عند طاولة آشنباخ لمحادثة قصيرة.


Twitter: @ketab_n

سأله هذا بلا مبالاة: «على فكرة، لماذا يهتمون منذ حين بتطهير البندقية؟ ـ الأمر يتعلق ، جاوب الشخص المجامل، بتدبير للشرطة معد ليتم في الوقت المناسب، وكما ينبغي، تلافي مختلف أنواع الاختلالات أو الاضطرابات في الوضع الصحي التي يمكن أن يولدها الطقس الثقيل والحرارة الاستثنائية. ـ إن سلوك الشرطة جدير بالتقدير»، أجاب آشنباخ. تبودلت بعض الملاحظات حول الطقس ثم انسحب المدير.

حدث مساء اليوم ذاته، بعد العشاء، أن سمع النزلاء أصوات فرقة صغيرة من مغني المدينة المتجولين، في الحديقة أمام الفندق. كانت تتألف من رجلين وامرأتين وقفوا قرب السارية الحديدية لمصباح مقوس رافعين وجوههم البيضاء تحت ضوء الكهرباء، نحو المصطبة الكبرى حيث تود شلة السابحين الذين يشربون القهوة والمرطبات أن تستمع للجوقة الشعبية. كان العاملون في الفندق، من صبية المصعد إلى الخدم فمستخدمي الوكالة يتزاحمون على أبواب البهو للاستماع. طلبت العائلة الروسية المفعمة حماساً واهتماماً بتذوق المتع كراسِّي مقششة إلى الحديقة لتكون أقرب إلى المغنيين وجلست في نصف دائرة، ملؤها الغبطة والانشراح. وقفت وراء الأسياد عبدتهم العجوز، يلف رأسها المدراس. كان يؤلف أوركسترا الشحاذين المهرة ماندولين وغيتار وأكورديون وكمنجة بأنغام صاخبة ونطناطة. تتناوب مع الموسيقى الآلية قطع غنائية. هكذا كانت تضم المرأة الأكثر فتوة عواء صوتها الحاد إلى الغناء الملاطف للتينور، مغنيين لحن حب لاهباً. إلا أن نجم الجوقة كان دون شك عازف الغيتار الذي يثير حماس جمهوره بإيمائية وطاقة هزلية مرموقتين، وهو يغني دون الكثير من


Twitter: @ketab_n

الصوت أدوار باريتون* غنائي. غالباً ما كان ينفصل عن الفرقة، وآلته الكبيرة بين ذراعيه، ويتقدم عازفاً ومعبراً بالحركات نحو الجمهور الذي يشجع دعاباته بالضحك. كان الروس، على وجه الخصوص، الجالسون في الردهة، هم الذين يبدون مفتونين بذلك القدر من الحيوية المتوسطية، وكانوا يحمسونه بتصفيقهم وهتافهم للانطلاق بالمزيد من الثقة والوقاحة.

كان آشنباخ الجالس قرب الدرابزون يغمس أحياناً في المزيج المنعش من شراب الغرينادين ومياه سيلتز الذي كانت تلمع يواقيته أمامه في زجاجته. كانت أعصابه تستقبل بشراهة موسيقى الجوقة الصاخبة تلك، ذات الأنغام المبتذلة والدنفة. ذلك أن الشغف يعطل الحس النقدي ويعرض نفسه عن حسن نية لمتع يجدها المرء مضحكة وهو ثابت الجنان أو ينبذها بانعدام صبر. ولدى إظهار البهلوان لبراعاته، كانت ملامحه تتقلص بابتسامة جامدة وأليمة. كان جالساً بلا مبالاة، فيما يشنج قلبه أقصى الانتباه: فعلى ست خطوات منه، كان تادزيو يستند إلى الدرابزون الحجري.

كان يمكث هناك بالزي الأبيض الذي يرتديه أحياناً أثناء العشاء، متحلياً بتلك اللطافة الأصلية التي لم تكن تفارقه، مستنداً بمرفقه الأيسر إلى الحاجز، مصلباً ساقيه، واضعاً يده اليمنى على وركه، وكان يغضي عينيه نحو المشعوذين يرتسم فيهما تعبير ليس ابتسامة بقدر ما هو فضول متحفظ وقبول لطيف. كان يستقيم أحياناً ويشد بلوزته البيضاء ساحباً إياها تحت الزنار الجلدي بحركة جميلة من ذراعيه، فيما

---

* آلة موسيقية نافخة (م).



Twitter: @ketab_n

يمدد صدره. لكنه كان يدير رأسه أحياناً أيضاً ببطء حذر (ويلاحظ آشنباخ ذلك بغبطة منتصرة، وبحمى في إدراكه كما بهلع في آن معاً)، أو فجأة كما لو كان يريد مباغتة أحدهم، ويلقي نظرة من فوق كتفه الأيسر نحو مكان الرجل ذي الشعر الرمادي الذي يحبه. لم يكن يلتقي عينيه لأن خوفاً مذلاً كان يجبر المجنون المسكين على إغضاء عينيه، بقلق. كانت السيدات يجلسن في أقصى المصطبة يراقبن تادزيو، ولقد بلغت الأمور حد خوف العاشق من أن يكون لفت الانتباه والشبهة. لا بل لا بد أنه لاحظ مراراً بنوع من الذعر، على الشاطئ، في بهو الفندق، وفي ساحة سانت مارك، أنهن كن ينادين تادزيو حين يكون قريباً منه، وينتبهن لإبقائه بعيداً عنه، ـ ولم يستطع إلا أن يشعر بإهانة قاسية كانت تتحمل كبرياؤه منها عذابات لم يعرفها حتى ذلك الحين، وكان وعيه يمنعه من إبعادها عنه.

إلا أن عازف الغيتار بدأ غناءً منفرداً قام هو ذاته بمصاحبته، كان يُغني في تلك الأيام في كل إيطاليا، وتتدخل الفرقة لدى كل لازمة بدعم كبير من الغناء والأوركسترا، فيما يعزف من جانبه برونق وحس درامي أخاذين. كان ينفصلاً عن الفرقة بجسمه الهزيل ووجهه الناحل، راداً قبعته إلى الوراء وتاركاً سالفاً أصهب يفيض من تحتها، ينتصب على الحصى في وقفة وقحة مستفزة ويطلق نحو الجمهور، في إلقاء منغم قوي، مزحاته المدعومة بقرصات وترية، فيما ينفخ الجهد أوردة جبينه. لم يكن يبدو من أصل بندقاني، بل بالأحرى من سلالة هزليي نابولي، نصف قواد، نصف كوميدي، فظاً وجريئاً، خطراً ومسلياً. كانت الأغنية، التافهة تماماً من حيث نصها، تتخذ في فمه


Twitter: @ketab_n

عبر التلاعب بهيئته، حركات جسده، غمزاته المعبرة وطريقته في تمرير لسانه بصورة شهوانية على زاوية شفتيه، مظهراً ملتبساً وصادماً دون أن ندري لماذا. كان يبرز من طوق قميصه الرخو الذي يرتديه تحت زي مديني رقبة ناحلة تنفر منها جوزة عنق كبيرة تعطي انطباعاً بالعري. بدا وجهه المفلطح، الشاحب والأجرد، تحرثه التكشيرات والمعايب فيما كان هزء فمه المتحرك يوحي بتناقض غريب مع الثنيتين اللتين تنحفران متغطرستين، قاهرتين، شبه شرستين بين حاجبيه الأصهبين. إلا أن ما استرعى فيه على وجه الخصوص الانتباه العميق للمشاهد المتوحد، فهو أن هذا الأخير لاحظ في الوجه المشبوه كما لو كان ظلاً خاصاً ليس أقل شبهة ينِدُّ عنه. كان المغني يقوم في الواقع عند كل استعادة للازمة، وهو يطلق تهريجات كثيرة وإرشادات احترام، ببرمة مضحكة يمر خلالها أمام آشنباخ مباشرة، وفي كل مرة يمر تفوح من ألبسته رائحة فينول قوية تنتشر فوق المصطبة.

ما أن أنهى أغنيته حتى شرع يجمع الأعطيات. بدأ بالروس الذين دفعوا بأريحية، ثم صعد بعد ذلك الدرجات. بقدر ما بدا وقحاً أثناء التمثيل، بقدر ما ظهر متواضعاً على المصطبة. كان يتغلغل بين الطاولات بانحناءات عميقة وأمارات احترام لا تنتهي، وتكشف أسنانه القوية ابتسامة تذلل مُداج، فيما بقيت الثنيتان المهددتان بين حاجبيه الأصهبين رغم كل شيء. كان الجمهور يقايس بنوع من الفضول وبعض القرف المخلوق الغريب الذي يجمع ما يقوم بأوده، ويرمي من طرف الأصابع قطع نقود في قبعته، متحاشياً ملامستها.إن إلغاء المسافة الجسدية بين الكوميدي والذوات يولد على الدوام، ومهما


Twitter: @ketab_n

تكن المتعة عظيمة، نوعاً من المضايقة. كان يشعر بها ويحاول أن يعتذر بتهذيب متذلل. وصل إلى مقربة من آشنباخ ومعه تلك الرائحة التي بدا أنها لم تحيّر أحداً من الحاضرين.

ـ إسمع! قال المتوحد بصوت مخنوق وبصورة شبه آلية. إنهم يطهرون البندقية، لماذا؟!

أجاب المهرج بصوت أجش: «بسبب الشرطة! كذا يقضي النظام أيها السيد في مثل هذا الطقس الحار وريح الشلوق. ريح الشلوق منهكة وضارة بالصحة...». بدا وهو يتكلم أنه فوجئ بأن تكون أشياء كهذه موضع سؤال، وكان يشرح بحركة توضيحية من كفه كيف أن ريح الشلوق مضنية. «ما من وباء إذن في البندقية؟» تمتم آشنباخ بصوت جد خافت. تقلصت ملامح المهرج في تكشيرة انذهال كوميدي. «وباء! أي وباء؟ هل ريح الشلوق وباء؟ هل شرطتنا وباء من باب الصدفة؟ أنت تمزح! وباء! آه! مثلاً. تدبير وقائي، هل تفهمني؟ تدبير اتخذته الشرطة ضد نتائج طقس عاصف...». وكان يُكثر من الإشارات. «طيب»، تمتم آشنباخ باختصار وأسقط بقشيشاً كثيراً في البرنيطة. ثم أشار للرجل بطرف عينيه أن يمضي في سبيله. أطاع هذا بضحكة هازئة واحترامات عميقة. لكن لم يبلغ الدرج حتى ارتمى عليه اثنان من مستخدمي الفندق أخضعاه عن كثب لاستجواب دقيق. كان يحرك كتفيه، يحتج، يقسم أنه لم يبح بشيء. تركاه يمضي. عاد إلى الحديقة، وبعد اجتماع قصير بأعضاء فرقته تحت المصباح المقوس، تقدم مرة أخرى ليؤدي أغنية وداع وشكر.

لم يتذكر المتوحد أنه سبق وسمع تلك الأغنية. كانت دعابة بالعامية،



Twitter: @ketab_n

هجائية، وقحة ومزينة بلازمة قهقهات ضاحكة تستعيدها الفرقة كل مرة بأعلى صوتها. تتوقف لدى اللازمة الكلمات ومصاحبة الموسيقى، فلا يبقى إلا ضحكة مدرجة تتبع إيقاعاً معيناً، لكن مؤداة بصورة طبيعية، ضحكة كان العازف المنفرد يعرف على وجه الخصوص أن يطلقها بشكل يعطي معه أكثر الأوهام حدة. بعد أن أعيدت المسافة بين الفنان والسامعين، استعاد كل وقاحته، وكانت ضحكته المصطنعة المطلقة بوقاحة باتجاه المصطبة ضحكة استهزاء. بدا عليه منذ كلمات المقطع الأخيرة أنه يقاوم دغدغة لا تقهر. كان يحوزق، يرتجف صوته، يضغط شفتيه بيده، يهز كتفيه بعصبية، وفي اللحظة المناسبة انفجر بالضحك الهازئ بصدق نبرة جعل عدواه تنتقل إلى السامعين، بحيث انتشر على المصطبة مرح صاخب بدون سبب، يتغذى من ذاته. بدا كما لو أن تلك النتيجة قد ضاعفت المرح المجنون لدى المغني. كان ثانياً ركبتيه، ضارباً فخذيه، ممسكاً خاصرتيه، متلوياً، لم يعد يضحك، كان يقهقه ويشير بإصبعه إلى الجمهور الضاحك فوق،كما لو لم يكن في الدنيا شيء أكثر إضحاكاً، بحيث عم الحديقة والشرفة في النهاية مرح مضجاج شارك فيه حتى الغارسونات وصبيان المصعد والخدم المتحلقون حول الأبواب.

لم يعد آشنباخ هادئاً في مقعده. كان ينهض كما لمحاولة الهرب أو الدفاع عن النفس. إلا أن القهقهات ورائحة المستشفى التي كانت تصعد نحوه، وفي محيط تادزيو الجميل، كانت تختلط في افتتان يحبس رأسه وروحه في شبكة سحرية يعجز عن قطعها أو إزاحتها. لقد تجرأ خلال الاضطراب والذهول العامين أن يلقي نظرة نحو المراهق، مما



Twitter: @ketab_n

سمح له بملاحظة الفتى الجميل يحتفظ هو الآخر بصرامته رداً على تلك النظرة، كما لو كان يضبط سلوكه وتعبيره على سلوك الآخر وتعبيره فلا يستطيع المزاج العام أن يؤثر فيه إطلاقاً، طالما يتهرب منه الآخر. كانت تلك الطاعة الطفولية المعبرة جداً تنم عن شيء ما يشل ويصرع كل مقاومة إلى درجة أن آشنباخ امتنع بعد جهد جهيد عن إخفاء رأسه الأشيب بين يديه. بدا له أن اعتياد تادزيو على النهوض من حين لآخر، بغية التنفس بحرية أكثر، ناجم عن حاجة للتنهد لإراحة صدره المضغوط. «إنه مريض، ومن المحتمل ألا يعيش طويلاً»، هكذا فكر إذ ذاك، بتلك الروح الإيجابية التي تبلغها أحياناً نشوة الهوى في تحرر فريد، وامتلأ قلبه في آن معاً باهتمام صرف وفرح فاجر.

إلا أن المغنين البندقانيين أنهوا غناءهم وانسحبوا. لحق بهم التصفيق، ولم يتوان قائدهم عن تزيين رحيله بمداعبات جديدة. كان انحناءاته وتحياته تثير الضحك بحيث ضاعفها. كانت الفرقة قد خرجت حين تصنع الاصطدام بقساوة بعمود فانوس وجر نفسه، كما لو كان منحنياً من الألم، باتجاه الباب. لكنه نزع هناك فجأة قناع المهرج سيء الحظ وانتصب كما لو كان يحركه نابض، سحب لسانه بوقاحة نحو نزلاء المصطبة وضاع في الظلام. تفرق جميع السابحين. كان تادزيو قد غادر الدرابزون منذ مدة طويلة. إلا أن المتوحد ظل وسط دهشة الأولاد جالساً إلى طاولته أمام ما تبقى من شراب الغرينادين. الليل يتقدم وتنصرم الساعات. كان في منزله الأبوي في غابر الأزمان ساعة رملية..تلك الآلة الصغيرة، سريعة العطب جداً والهامة جداً، رآها فجأة من جديد كما لو كانت أمامه. كانت الرمل المائل للون



Twitter: @ketab_n

الصدأ يجري بصمت عبر ثقب الزجاجة الضيق، وفيما كان يستنفد في التجويف العلوي، تشكلت هناك زوبعة صغيرة جامحة.

قام آشنباخ منذ ما قبل ظهر اليوم التالي بمسعى جديد لمعرفة ما يجري في البندقية، محققاً في هذه المرة نجاحاً كاملاً. دخل في ساحة سانت مارك إلى وكالة السفر التي يديرها إنكليز، وبعد أن صرف بعض المال على الصندوق، توجه بالكلام للموظف الذي كان يخدمه، وطرح عليه بسيماء الغريب المحترس السؤال المزعج. كان أمامه بريطاني مرتدٍ لباساً صوفياً من رأسه إلى أخمص قدميه، ما يزال في سن الشباب، مفروق الشعر في الوسط، ذو عينين متقاربتين كثيراً. كان الرجل ينم عن صدق يتناقض بصورة فريدة وممتعة مع الرشاقة المخادعة لجنوبي البلاد. «ليس من داع للقلق، أيها السيد. إنه تدبير لا معنى خطير له: تلك ترتيبات يتم اتخذها غالباً لتلافي التأثيرات الضارة لحرارة ريح الشلوق...». إلا انه فيما يرفع عينيه الزرقاوين، التقى نظرة الغريب، نظرة متعبة وحزينة قليلاً موجهة نحو شفتيه وفيها ما ينم عن الاحتقار. إبتسم الإنكليزي عند ذلك وتابع بصوت خافت مع شيء من الانفعال: «ذلك هو التفسير الرسمي الذي يجدون هنا من المناسب الاستمرار بإعطائه. أما أنا فاعترف لك أن ثمة شيئاً آخر». وعندئذ قال الرجل الحقيقة بلهجته الشريفة غير المتكلفة.


Twitter: @ketab_n

# 6

منذ سنوات عديدة والكوليرا الأسيوية تتجه إلى الانتشار، وقد كانت تنفجر خارج الهند بعنف أكبر فأكبر. إن الوباء الذي تولده الحرارة في الدلتا المستنقعية لنهر الغانج، والأبخرة الفاسدة التي ينفثها جَزْر ما يزال قريباً جداً من الخلق، غابةٌ كثةُ وغير مسكونة لا يقطنها غير النمور التي تلبد في أدغال البامبو، الوباء هذا قد اكتسح الهند كلها حيث ما انفك يعيث فساداً بحدة غير معتادة. ثم امتد إلى الشرق نحو الصين، وإلى الغرب نحو الأفغان وبلاد فارس، ووصل بفتكه حتى استراخان، سالكاً طريق القوافل الكبرى، لا بل وصل إلى موسكو. إلا أنه فيما كانت ترتجف لرؤية المرض يدخل فمن ذلك الباب، فقد كان دخوله مع تجار سوريين آتين من وراء البحار ظاهراً في الوقت ذاته في عدة مرافئ متوسطية. أعلن عن نفسه في طولون، وفي ملقه. جرى اكتشافه عدة مرات في بالرم، وبدا أنه تفشى في كالابرا والآبوليا بصورة نهائية. لم يسلم منه إلا الجزء الشمالي من شبه الجزيرة. إلا أنه في ذلك العام ـ كان الوقت منتصف أيار ـ جرى في يوم واحد اكتشاف البكتيريات القوْسية في جثتين مفرغتين ومسودتين لنوتي



Twitter: @ketab_n

وبائعة متجولة. تم إخفاء الحالتين. إلا أنه ظهر في الأسبوع اللاحق عشر إصابات، عشرون، ثلاثون، وذلك في مختلف الأحياء. إن واحداً من سكان المقاطعات النمساوية جاء يستجم بضعة أيام في البندقية، توفي فور عودته إلى مدينته الصغيرة وفاة لم يكن ثمة مجال للانخداع حول سببها، وهكذا وصلت أولى إشاعات الوباء الذي انفجر في مدينة البحيرات الساحلية إلى الصحف الألمانية. أجاب قضاء البندقية البلدي أن الشروط الصحية للمدينة لم تكن أفضل يوماً وأنه تم اتخاذ التدابير القصوى لمكافحة الوباء. إلا أنه لا ريب أن الأطعمة، الخضار واللحم والحليب، كانت كلها موبوءة لأنه، وإن يكن تم تكذيب الأنباء أو تظبيطها، فقد كان الوباء ينتشر. كان الناس يموتون في الأزقة الضيقة، وقد ساعد انتقال العدوى حر مبكر كان يفترّ مياه الأقنية. بدا أن الوباء يتفاقم وأن الأبخرة الفاسدة تضاعف من صلابتها وحدتها. كانت حالات الشفاء نادرة بينما يموت ثمانون بالمئة من المصابين موتاً رهيباً، لأن المرض يبدي عنفاً لا متناهياً. وكثيراً ما ظهر شكله الأشد خطورة، ذلك الذي يسمونه الشكل الجاف. يكون الجسم في تلك الحالة عاجزاً عن التخلص من المُصالات التي تدعها الأوعية الدموية ترشح بكميات كبيرة. يجف المريض في ساعات قليلة ويخنقه دمه الذي أصبح دبقاً. يحتضر وهو يتشنج ويحشرج.

يكون المرء محظوظاً فيما لو حدث، كما الحال أحياناً، أن أعلنت الكوليرا عن نفسها بعد انزعاج خفيف يتخذ شكل إغماء عميق يكاد لا يستيقظ منه. إمتلأت في بدء حزيران معازل المستشفى المدني دون ضجيج. لم يعد ثمة سرير واحد في الميتمين وانتشر رواح ومجيء جنائزي



Twitter: @ketab_n

بين الرصيف الجديد وسان ميشال، جزيرة المقبرة. لكن الخوف من خسارة تلحق بالمجموع، الأخذ بالاعتبار أنه تم افتتاح معرض رسم في الحديقة العامة، وأن الفنادق، دور التجارة، كل الصناعة المعقدة للسياحة تتعرض لخسائر ضخمة في حال انفجر الذعر نتيجة لفضح واقع المدينة، كل ذلك يتغلب على حب الحقيقة واحترام الاتفاقات العالمية، ويدفع السلطات إلى المثابرة بعناد على سياسة الصمت والتكذيبات التي اعتمدتها. إستقال غاضباً مدير مصلحة الصحة في البندقية، وهو رجل ذو جدارة، وتم استبداله سراً بآخر أكثر مرانة. كان الشعب يدري بذلك، فيما يؤدي فساد أعيان المدينة، مضافاً لانعدام اليقين الذي يسود، لحالة الاستثناء التي يُغرق فيها الموتُ الجوال البندقية، إلى إفساد الطبقات الدنيا، إلى إندفاع الأهواء المخجلة، غير المشروعة، وإلى نمو نزعة إجرامية تنفجر فيها، تعلن عن نفسها بوقاحة. يلاحظ في المساء الكثير من السكيرين وهو امر شاذ. يقال إنه مع حلول الليل كان جوالون يجعلون الشوارع غير مأمونة. تتكرر الاعتداءات وأعمال القتل، وقد حدث مرتين أن تم تسميم أشخاص، زُعم أنهم ضحايا الوباء، على يد أقاربهم الراغبين في التخلص منهم. بلغت الآفة المهنية درجة إلحاح وفساد لم تكن معروفة في تلك المنطقة لولاه، ولم يكن الناس معتادين عليها إلا في جنوبي البلاد وفي المشرق. روى الإنكليزي لآشنباخ زبدة ذلك كله واختتم بقوله: «يحسن أن ترحل، واليوم أفضل من الغد. لن يتأخر الحجر الصحي أكثر من أيام معدودات». ـ «شكراً»، قال آشنباخ وغادر المكاتب.

رزح على الساحة جو صيفي خانق غير مشمس. كان غرباء جاهلون



Twitter: @ketab_n

الحقيقة يجلسون على أرصفة المقاهي، أو يمكثون وسط أسراب الحمام أمام الكنيسة، ويتسلون برؤيتها ترتع، تتدافع، تنقر حبوب الذرة التي تعرض عليها في تجويفة الكف. كان آشنباخ يذرع وحيداً بلاطات ساحة الشرف مضطرباً، محموماً، منتصراً لامتلاكه الحقيقة، ممتلئ الفم قرفاً، مرتجف القلب حيال رؤى وهمية غريبة. كان يشاور نفسه حول إمكانية القيام بعمل يجدر تقريره يكون مطهِّراً. يمكنه في المساء بالذت بعد العشاء أن يقترب من السيدة المزدانة باللآلئ ويكلمها بتعابير بدأ يصوغها: «إسمحي، سيدتي،لأجنبي أن يسدي إليك نصيحة، تحذيراً تحرمك منه أنانية الآخرين. غادري البندقية حالاً مع تادزيو وبناتك! فالكوليرا في المدينة.» يصبح جائزاً له بعد ذلك أن يضع على رأس المراهق المترحل، الذي كان أداة إله ساخر، يديه الإثنتين، ثم أن يستدير ويفر من ذلك المستنقع. إلا أنه أحس في اللحظة ذاتها ببعده البعيد عن اتخاذ قرار من هذا النوع. فالخطوة المخطوة تعيده إلى الوراء، تعيده إلى نفسه. لكن من هو خارج نفسه لا يخشى شيئاً خشيته دخولها. تذكر مبنى وضاء تزينه النقوش التي تلمع عند المساء، والتي لفتت شفافيتها الصوفية نظره، فكره التائه. تذكر كذلك شبح المسافر الغريب الذي أيقظ في قلبه الشائخ الرغبة الصبوية في الرحيل، في الانطلاق دون هدف إلى البعيد، على غير هدى. إن فكرة العودة إلى المنزل، تصحيح الخطأ، إسقاط الإثارة، والاشتغال بالمهمة التي تتطلب اجتهاداً وتمالكاً، كانت تنفره إلى حد أن ملامحه تقلصت للتعبير عن قرف جسدي: «ينبغي الإخلاد إلى الصمت»، تمتم بحدة. وأضاف: «سأصمت». كان الشعور بالتواطؤ يسكره كما يفعل قليل من الخمر


Twitter: @ketab_n

بدماغ مرهق. إن لوحة المدينة الموبوءة، والمتروكة بلا عناية، التي عبرت خياله المحموم، كانت تشعل فيه آمالاً تتخطى النفس وتتجاوز العقل، آمالاً ذات عذوبة مخيفة. ماذا كانت بالنسبة إليه الغبطة اللطيفة التي حلم بها لحظة،، إذا قورتنت بهذا الانتظار؟ ماذا يمكن أن يفعل له الآن الفن والفضيلة بالقياس إلى امتيازات الخواء؟ أخلد إلى الصمت وقرر البقاء.

رأى في تلك الليلة حلماً رهيباً ـ إذا أمكن إطلاق تسمية الحلم على دراما الجسد والروح تلك التي حدثت دون ريب فيما هو نائم نوماً عميقاً، متمثلة بأشكال محسوسة وبالاستقلال الكلي عنه، لكن كذلك دون أن يعي أنه هو نفسه خارج الأحداث. على عكس ذلك، فقد كانت روحه بالذات مسرحها، وكانت تلك الأحداث وهي تهاجمه من الخارج تحطم مقاومته، تغتصب قوى نفسه العميقة، تزعزع كل شيء وتترك وجوده، البناء المعنوي لحياته بأكملها ، مدمراً، معدوماً.

بدأ ذلك بالقلق، واللذة، وبفضول ممزوج بالرعب حيال ما سيحدث فيما بعد. كان الليل مخيماً، وأحاسيسه يقظى. ذلك أنه كان يسمع ضجة تقترب من البعيد، قرقعة، هرجاً ومرجاً هو مزيج من ضوضاء سلاسل وأبواق وزمجرات صماء شبيهة بالرعد وصرخات حادة تنم عن ابتهاج ونوع من العواء وأصوات نعيب تنتهي بـ «أُو» ممدودة، والكل ممزوج بأغاني شبابة هادلة ورزينة، شهوانية وسفيهة، لم تكن تنقطع، مهيمنة على الباقي بحلاوتها الرهيبة، تمسك الكائن بأحشائه بصورة شبقية. إلا أنه كان يعرف كلمة قاتمة تدل مع ذلك على ما سيأتي: «الإله الغريب!». كانت أضواء غامضة تشتعل: رأى


Twitter: @ketab_n

جبلاً شبيهاً بذلك الذي يحيق بمحل إقامته الصيفي. وفي الأضواء التي كانت تمزق غبش المرتفعات الحرجية، بين جذوع الأشجار وزوايا الصخور المعشبة، كان شيء يتساقط ركاماً ويتدافع نحوه: زوبعة، شلال رجال، حيوانات، فِرْق نحلٍ، رهط هائج. وكان ذلك يغمر المنحدرات المعشوشبة بالأجساد واللهب والرقصات العنيفة والدَّوَّارات المدوخة. كانت نسوة لابسات جلود حيوانات تتدلى فوق أحزمتهن وتربك أقدامهن، يرفعن إلى الخلف دفوفاً بجلاجل وهن يحشرجن. كن يلوّحن بمشاعل تقذف باقات شرارات وخناجر عادية. كن يحملن أفاعي، يمكنها من وسطها، تقذف ألسنتها الحادّة. أو يسرن مطلِقات صيحات ومقدمات نهودهن المرفوعة بأيديهن. كان رجال لهم قرون على الجبين وجلود حيوانات عند الحزام، موبرون كالدّببة، يحنون الرقبة، يكافحون بكل أعضائهم، تدوي تحت ضرباتهم صنوج قلزية، أو تصدر عنهم تشويرات غاضبة وهم يقرعون على دفوف، فيما كان أولاد عراة ومُلْسٌ ينخسون بقضبان مزينة بالخضرة تيوساً لها قرون يتعلقون بها، تجرهم وهم يقفزون مطلقين صيحات فرح. وكان الممسوسون ينعبون نشيدهم المؤلف من حروف صوامت ناعمة تنتهي بالـ «أُو» الممدودة، وذلك بأنغام تتسم بوحشية وعذوبة خارقتين. كان يصعد من أحد الأمكنة مقَنّىً في الأجواء، شبيهاً بنداء أيل ينزب، فيما يتكرر عند نقطة أبعد قليلاً بألف صوت له نبرات انتصار مجنون، حاضاً على الرقص والتشويرات، ولم يكن يُفسَح له المجال ليتوقف. لكن كل شيء كان يجتازه يسيطر عليه لحن الشبَّابة الخافت والساحر. ألم يكن يسحره هو أيضاً، هو الذي كان يعيش وهو



Twitter: @ketab_n

يتخبط ذلك المشهد، ويحس بنفسه وقد جذبه العيد الإباحي بإصرار، واحتدامات الذبيحة القصوى؟ كان قرفه عظيماً، عظيماً كان خوفه، شريفة كانت إرادته أن يحمي حتى النهاية ما كان له ضد الغريب، عدو الروح التي تريد أن تتمالك وتتحكم بنفسها. إلا أن الضجيج، النداء الوحشي المتكاثر بفعل صدى الصخور، كان يتعاظم، يستولي عليه، ينتفخ متحولاً إلى هذيان لا يقاوم.

كانت أبخرة تزكم الأنف، رائحة التيوس الحادة، عفن الأجساد اللاهثة، نَفَس شبيه بذلك الذي يفوح من المياه الآسنة، ثم رائحة أخرى أيضاً، مألوفة، كرائحة الجراح والأمراض المنتشرة في الجو. كان قلبه يدوي على ضربات الدفوف، ويبرم دماغه، يستولي عليه الغضب والعمى وتخبله اللذة، وكان يشتهي من أعماق روحه أن يدخل في دوّارة الإله. تُرك الحجاب يسقط عن الرمز الداعر المصنوع من خشب جبار، وحين انتصب مع صيحات أكثر جنوناً، تلفظوا بالكلام الطقسي. كانوا يثيرون بعضهم بعضاً بحركات شبقة والزبد يعلو شفاههم، مختلي العقل، وأيديهم شاردة. ووسط الضحك والتنهدات، يغرزون مهاميز بعضهم في لحم بعض ويلكحون الدم النازف من أعضائهم. كان النائم معهم، كان فيهم. وقد أسلمه حلمه للإله الغريب. أجل، لقد تجسد في كل من أولئك الذين كانوا يرتمون على الحيوانات، بحركات هيجان ومجزرة، ويلتهمون مزقا مدخنة من لحمهم، حين انتهى عراك صاخب لا اسم له بالنشوب على الطحلب المخروب، من أجل القربان الأسمى للإله. وقد تذوقت روحه الفسق، نشوة الانهيار والدمار.


Twitter: @ketab_n

إستيقظت الضحية من ذلك الحلم مدمرة، مزعزعة، مُسْلمة للشيطان دون دفاع. لم يعد يخشى نظرات من كانوا يراقبونه. لم يكن يهمه إطلاقاً أن تحوم حوله الشبهات. زد على ذلك أنهم كانوا يرحلون، يهربون. كانت الكابينات تبقى فارغة بأعداد كبيرة، وتفرغ لائحة النزلاء أكثر فأكثر، وتندر رؤية غريب في المدينة. كان يبدو أن الحقيقة رشحت، لم يعد بالإمكان منع حالة الذعر رغم تكتم المعنيين الصلب واتفاقهم على ذلك. لكن السيدة ذات اللآلئ بقيت هي وأولادها، إما لأن الإشاعات لم تصلها، أو لأنها كانت مكابرة جداً وأرفع بكثير من الخوف فلا تستسلم: بقي تادزيو، وكان يبدو أحياناً لآشنباخ المستغرق في حلمه أن الهرب والموت يزيلان من حوله كل حياة تزعجه، وأنه يمكنه أن يبقى وحده في تلك الجزيرة مع المراهق الجميل. في الصباح على الشاطئ، حين يثبت على الوجه المشتهي نظرة ثقيلة جامدة، غير مسؤولة، وعند حلول الليل، حين يفقد كل تحفظ فيتبعه في الأزقة حيث يختبئ الموت المقرف، كان يبلغ حداً يجد معه آفاقاً شوهاء مفعمة بالأمل، ويعتبر القانون الأخلاقي عفا عليه الزمن.

كان يتمنى أن يثير الإعجاب، كما أي عاشق آخر، ويشعر بقلق مرير حيال فكرة استحالة ذلك. يضيف إلى لباسه ما يبهجه كما الحال مع رداء فتى في مقتبل العمر، يتزين بحجارة كريمة، ويلجأ إلى العطور. يقضي جلسات طويلة كل يوم للتبرج، ويمضي إلى طاولته متزيناً، مثارا، متوتراً، إزاء المراهق اللذيذ الذي أغرم به. كان جسمه الشائخ يثير قرفه. يشعر بالخجل واليأس وهو يرى شعره الرمادي وملامح وجهه المتغضنة. كان شيء ما يدفعه إلى إعادة الطلاوة لجسده، إلى إعادة


Twitter: @ketab_n

صنعه. كان يُرى غالباً في صالون حلاقة الفندق. يتأمل صورته في المرآة بنظرة معذبة، وهو ملتف بالمئزر متمدد على الكرسي، مستسلم لعناية حلاق ثرثار.

ـ أشيب، قال بابتسامة ساخرة.

ـ قليلاً، أجاب الرجل. فضلاً عن أن سبب ذلك إهمال صغير، عدم اهتمام بتفاصيل الزينة يمكن فهمه تماماً لدى كل الشخصيات العظيمة، ويمكن مع ذلك انتقاده، لا سيما أن المسبقات المتعلقة بمباهج الفن ليس مقبولة لديهم. لو كانت الصرامة التي يظهرها بعض الناس تجاه براعة الحلاق تنطبق على العناية بالأسنان، فأي فضيحة! باختصار، ليس لنا إلا العمر الذي تعطينا إياه روحنا، قلبنا. ويحصل أن يكون الشعر الرمادي تناقضاً أكثر واقعية من ملطف يتم احتقاره. هكذا يحق لمن هو في مثل حالتك أيها السيد أن يستعيد لون شعره الطبيعي. هل تسمح أن أعمل على إعادته إليك؟

ـ كيف ذلك؟ سأل آشنباخ.

ـ عندئذ! غسل الحلاق الفصيح شعر زبونه بنوعين من الماء، واحد فاتح والآخر قاتم، فعاد أسود كما يوم كان في سن العشرين. ثم مَوَّجَهُ بنعومة بواسطة المجعدة، رجع إلى الوراء، تأمل صنيعه وقال:

ـ لم يعد من حاجة إلا لإنعاش الوجه قليلاً.

وكرجل لا يعرف أن ينتهي، ولا يرضيه شيء كلياً، راح ينتقل من معالجة إلى أخرى، بمظهر أكثر فأكثر انهماكاً. كان آشنباخ المتمدد باسترخاء، العاجز عن المقاومة والمستعيد أمله إزاء المشهد، ينظر في



Twitter: @ketab_n

المرآة إلى حاجبيه يرتسمان في المرآة، يتقوسان بانسجام، وإلى عينيه تتسعان كلوزتين وتلمعان ببريق أشد بفضل دائرة من الكحل تحت الجفن. رأى حيث كان جلده من قبل رخواً، أصفر وشبيهاً بالرَّقِّ، لوناً أرجوانياً خفيفاً يظهر. واستدارت شفتاه اللتان كانتا قبل قليل منزوفتين، واتخذتا لون توت العلَّيق. اختفت تجعدات الخدين والفم وتغضنات الصدغين تحت المرهم وماء الشباب... كان قلب آشنباخ يخفق بشدة وهو يكتشف في المرآة مراهقاً في زهوته. أعلن المجمل أخيراً عن رضاه وشكر متزلفاً، على طريقة الذين من نوعه، ذلك الذي قدم له خدماته. «لمسات بسيطة ـ قال وهو ينجز عمله ـ يمكن لسيدي أن يعشق الآن دون وجل». مضى آشنباخ مفتوناً، طائراً على أجنحة حلمه، مضطرباً وخائفاً. كان يضع ربطة عنق حمراء، يزين قبعةَ القش العريضة الحروف التي يعتمرها شريط ملون.

شرعت ريح فاترة تعصف. لم يكن يتساقط إلا أمطار نادرة ودقيقة، إلا أن الجو كان رطباً، ثقيلاً، فاسداً ومعبأ بالأبخرة العفنة. إمتلأت أذنا آشنباخ بالطنين والخفقان والصفير. كان يعتقد، وهو محموم تحت خضابه، أنه يسمع حوله مرور أرواح شريرة ترتع في الفضاء، وعصافير البحر الجنائزية التي شبعت من لحم المشانق الذي مزقته، نبشته ووسخته. ذلك أن الجو كان ثقيلاً إلى حد أن المرء يفقد كل شهية، ولم يكن يستطيع أن يمتنع عن تخيل الاطعمة التي تسممها جراثيم العدوى.

تغلغل آشنباخ بعد ظهر أحد الأيام خلف المراهق الجميل، في متاهات وسط المدينة الموبوءة. لم يعد يعرف كيف يتوجه، ذلك أن كل



Twitter: @ketab_n

أزقة المتاهة وقنواتها وجسيراتها وساحاتها تتشابه، لا بل لم يعد واثقاً في أي جهة يقوم الفندق، فلم يشغل فكره إلا أمر واحد: ألا يغيب عن نظره الطيف الذي يتبعه بإصرار. سار طويلاً متخذاً احتياطات مذلة، لامساً الأسوار، مختفياً خلف المارة، قبل أن ينتبه إلى التعب، إلى الإنهاك الذي أنزله شغفه وتوتر لا ينقطع بجسده روحه. كان تادزيو يسير خلف أقاربه. يترك مربيته والراهبات الصغيرات شقيقاته يتقدمنه عادة في الممرات المزدحمة. يسير متسكعاً وراءهن، ويدير رأسه من حين لآخر للتأكد بنظرة سريعة من فوق الكتف، بنظرة من عينيه اللتين بلون الفجر، أن عاشقه يتبعه. كان يراه دون أن يخونه. أما هذا فيغل خلف أمله الذي في غير محله، تسكره تلك الملاحظة، تجره تانك العينان ويقوده هواه. انتهى به المطاف إلى أن يجد نفسه منهوباً. لقد اجتاز البولونيون جسراً مقوساً فأخفاهم ارتفاع عقده عن عيني متتبعهم، وعندما اجتازه بدوره كانوا قد غابوا عن نظره. فتش الأفق في ثلاثة اتجاهات، أمامه مباشرة ومن الجانبين، على طول الرصيف الضيق والقذر، لكن دون جدوى. أخيراً، أجبره تهيج الأعصاب والتعب المنهك على وقف تفتيشاته.

كان رأسه يحترق، والعرق يدبق على جلده، ترتجف رقبته ويعذبه عطش لا يحتمل. تطلع باحثاً عن أي شيء يرطب حلقه فوراً. إشترى من حانوت صغير بعض ثمار الفريز، بضاعة ناضجة جداً ورخوة. أكل منها وهو يواصل طريقه. انفتحت أمامه ساحة صغيرة مقفرة يظن المرء أن عصا ساحر قد استحضرتها. تعرف عليها. هنالك خطط للفرار قبل أسابيع مشروعه الفاشل. إسترخي على درجات الخزان


Twitter: @ketab_n

وسط الساحة مسنداً رأسه إلى حجر البئر. الصمت عميق، والعشب ينمو بين البلاطات، فيما حتات الصخور ينتشر في المحيط. بين المنازل المتفاوتة والخربة التي تحيط بالساحة، كان ثمة واحد يشبه القصر، له نوافذ مقوسة يقطن خلفها الفراغ وشرفات صغيرة تزينها الأسود. كان هنالك صيدلية في الطابق الأرضي لمنزل آخر. تأتي هبات هواء ساخن أحياناً برائحة فينول.

كان جالساً إذن هناك المعلِّم، الفنان الذي تعاظم مقامه، المؤلف البائس الذي جحد الحياة البوهيمية وكدر القيعان، في شكل ذي نقاوة مثالية، الذي فضح كل تعاطف مع الهاويات واستهجن ما يستوجب الاستهجان. هو الذي صعد عالياً جداً، هو الذي اعتاد على اعتبار نفسه مربوطاً بأهداب الثقة التي يوحيها لجمهوره، بعد أن تخلص من معرفته وتحرر من السخرية ـ غوستاف آشنباخ الذي كان مجده رسمياً، الذي رُفع إلى مصاف النبلاء، والذي فُرض أسلوبه مثالاً لتلامذة المدارس، كان جالساً هناك مغمض الجفنين. كان يسرّب فقط بين الحين والآخر نظرة منحرفة، ساخرة ومذهولة، ثم سرعان ما ينغلق جفناه وشفتاه الرخوتان المرسومتان بالأحمر، تصوغان كلمات مفصولة عن الحديث الذي كان دماغه الخدر يؤلفه وفقاً لمنطق الحلم الغريب.

«ذلك أن الجمال، لاحظ جيداً يا فيدروس، الجمال وحده إلهي ومرئي في آن معاً، وهكذا نتوجه نحو المحسوس. به ينخرط الفنان، يا فيدروس الصغير، في دروب الروح. لكن هل تعتقد إذن يا صديقي أن هذا سيبلغ الحكمة يوماً ورجولة حقيقية تتجه نحو الروح عن


Twitter: @ketab_n

طريق الحواس؟ أو هل تعتقد (والأمر لك) أن تلك الطريق ملأى بمخاطر محببة، أنها حقاً طريق متعرجة وجانبية وأنها تؤدي بالضرورة إلى الخطأ؟ ذلك أنه سنبغي أن تعرف أننا، نحن الشعراء، لا يمكننا أن نسلك طريق الجمال دون أن ينضم إلينا إيروس ويأخذ دفة القيادة. مع أنه يمكننا أن نكون أبطالاً على طريقتنا، ومحاربين منضبطين، فنحن كالنساء، لأن الشغف هو بالنسبة إلينا قدوة، وينبغي أن يبقى توقنا محبة... تلك هي لذتنا وذلك هو خجلنا. هل ترى الآن أنه لا يمكننا، بما أننا شعراء، أن نكون عقلاء أو أن نكون أعزة؟ أنه ينبغي أن نضل بالضرورة، أن ننحل بالضرورة وأن نبقى مغامري عاطفة؟ إن التحكم بأسلوبنا هو كذب وخداع. إن مجدنا، التشريفات التي تقدم لنا، هي هرجة. إن ثقة الجمهور بنا مضحكة إلى أقصى الحدود. إن تثقيف الشعب والشبيبة بالفن مشروع جريء ينبغي منعه. لأنه أي تثقيف يلائم ذلك الذي تميل طبيعته إلى الهاوية. إننا نجحد الهاوية تلقائياً لنعز أنفسنا. لكن أينما استدرنا فهي تجذبنا إليها. هكذا فإننا نستحلف المعرفة الهدامة، ذلك أن المعرفة يا فيدروس ليست عزيزة ولا صارمة. إنها تعرف ، تفهم وتسامح - لا قساوة لها ولا شكل. إنها تتعاطف مع الهاوية، هي الهاوية. نحن ننبذها إذن حتماً، ومذ ذاك يتجه جهدنا نحو الجمال وحده، أي نحو البسيط، نحو العظيم، نحو الصرامة والعفوية المستعادتين والأسلوب. إلا أن الأسلوب والعفوية يا فيدروس يجران النشوة والشهوة، يخاطران بسوق من يشعر شعوراً نبيلاً إلى تدنيسات مرعبة للقلب مع أن تذوقه لجمال صارم يعلن عن سفالتها... إن



Twitter: @ketab_n

الشكل والأسلوب يقودان إلى الهاوية. هما أيضاً ـ إلى الهاوية. إنهما يقودانا أيضاً إليها، أقول، لأن الشاعر غير قادر على سمو دائم، ليس قادراً إلا على اندفاقات. والآن، يا فيدروس، إبق أنت، أما أنا فأرحل. وفقط حين لا تعود تراني، إرحل أنت أيضاً.»

بعد ذلك بأيام، غادر غوستاف آشنباخ الذي كان يشعر بالألم الفندق في ساعة صباحية مبكرة أكثر من العادة. كان عليه أن يتغلب على بعض نوبات الدوار التي لم تكن عائدة لأسباب بدنية إلا نصفياً، وكانت ترافقها نوبة قلق، الشعور بأنه لا مخرج ولا رجاء، دون أن يفسر لنفسه إذا كان ذلك الشعور عائداً للعالم الخارجي أو لشخصه هو بالذات. لاحظ في الردهة كدسة أمتعة معدة للرحيل، وسأل البواب عمن يكون الراحل. أعطاه هذا، بمثابة جواب، اسم العائلة البولونية، مرفقاً إياه بلقب النبالة، وهو ما كان توقعه سراً. أصغى إلى ذلك دون أن تتحرك ملامحه الشاحبة، إلا حركة خفيفة من الذقن ترافق عادة خبراً لا يهم السامع إلا عرضاً، ثم أضاف: «متى؟». أجابه البواب: «بعد الغداء». وافق بحركة من الرأس ومضى إلى البحر.

كان الشاطئ غير مضياف. تركض تغضنات خفيفة على الامتداد الواسع للمياه الواطئة الذي يفصل أول جرف رملي عن الشاطئ. بدا نَفَس الخريف، نَفَس الأشياء التي توقفت عن الحياة، يمر على مكان المتعة ذلك الذي كانت تحييه في الماضي ألوان فاقعة والذي أصبح الآن شبه مقفر وغير متعهد بالعناية. كان جهاز تصوير، غير معروف من



Twitter: @ketab_n

هو صاحبه، يستقر على حافة الماء فيما يصفق الحجاب الأسود الموضوع فوقه في الريح التي أصبحت باردة.

كان تادزيو، وثلاثة أو أربعة من اصحابه الذين آثروا البقاء معه، يلهو إلى يمين كابينة عائلته، وقد تابعه مرة أخرى بالنظر آشنباخ المتمدد على كرسيه، مغطياً ركبتيه، عند منتصف الطريق بين البحر وصف الكابينات.

إن اللعب الذي لم يكن يراقبه أحد، لأن النسوة كن منهمكات دون شك باستعدادات السفر، بدا أنه لم يعد يسير وفقاً للقاعدة، وانحط. فالولد السمين القصير ذو الشعر الأسود المدهون الذي يدعونه جاشو، والذي غضب لأنه تلقى حفنة رمل في وجهه وعينيه، أجبر تادزيو على العراك معه وسرعان ما سقط المراهق الناحل. لكن كما لو أن تبعية الأدنى تحولت لدى جاشو إلى شراسة وقساوة في ساعة الفراق، كما لو أراد الانتقام من عبودية طويلة، فبعد أن انتصر لم يترك الخصم المهزوم، بل ضغط على العكس بركبتيه على ظهره وأبقى وجهه في الرمل طويلاً، إلى حد أن تادزيو الذي أنهكه العراك بدا على وشك الاختناق. كانت محاولاته للتخلص من خصمه الذي يضيّق عليه متشنجة. كانت تتوقف أحياناً كلياً ، ولم تكن لتعاود إلا بانتفاضات. خرج آشنباخ عن طوره، وكان يود أن يقفز لنجدته حين ترك الشرس أخيراً ضحيته. كان تادزيو شاحباً جداً، وقد جلس مستنداً إلى أحد مرفقيه. بقي عدة دقائق دون حراك، مبعثر الشعر، قاتم النظرة، ثم انتصب كلياً وابتعد ببطء. ناداه أحدهم، والصوت الذي كان في البدء



Twitter: @ketab_n

مرحاً صار قلقاً ومتضرعاً. لم يكن يسمع. أما الآخر، الفتى ذو الشعر الأسود، فيبدو أنه ندم على فعلته، فأمسك به وحاول مصالحته. إلا أن تادزيو أبعده بحركة من كتفه ونزل منحرفاً نحو البحر. كان حفياً ويرتدي لباسه المضلع المزين بعقدة حمراء.

توقف عند حافة الموج مطأطئ الرأس راسماً بطرف قدمه صوراً على الرمل الرطب، ثم دخل المستنقع البحري الذي لم يكن يصل في أعمق مكان منه إلى ركبته. إجتازه وبلغ الجرف الرملي وهو يتقدم بلا مبالاة. توقف هناك لحظة ووجهه نحو عرض البحر، ثم شرع يجتاز متمهلاً اللسان الرملي الطويل والضيق الذي يكشفه البحر. تفصله عن الأرض الصلبة مساحة من المياه، تفصله عن أصحابه نزوة كبرياء، كان يمضي، رؤيا دون رباطات ومنفصلة كلياً عن الباقي، شعره للريح، هناك في البحر والريح، منتصباً على اللانهاية الضبابية. مرة أخرى انفصلت الصورة الجامدة، وفجأة كما لدى ذكرى، اندفاعة، أدار نصفه الأعلى، منحنياً بلطافة بالنسبة لوضعه الأول، واضعاً يده على وركه، ونظر إلى الشاطئ من فوق كتفه. كان آشنباخ جالساً هناك، كما في اليوم الذي التقى فيه نظره للمرة الأولى تينك العينين اللتين بلون الفجر. استدار رأسه ببطء، منزلقاً على مسند الكرسي، لمرافقة حركة ذلك الذي كان يتقدم هناك. كان ينتصب الآن كما للمضي إلى أمام نظره، ثم تهالك على الصدر، والعينان مستديرتان لتريا أيضاً، فيما يتخذ الوجه التعبير المتراخي والورع للنائم الذي يسقط في نوم عميق. كان يبدو لآشنباخ أن الفتى الشاحب والجدير بالحب يبتسم له هناك،



Twitter: @ketab_n

مشيراً إلى عرض البحر. إنه ينتزع يده عن وركه، يمد إصبعه نحو البعيد، وينطلق متقدماً غيره كظل في الفراغ الضخم والمفعم وعوداً. ودَّ كما مراراً عديدة من قبل أن ينهض للحاق به.

إنصرمت دقائق قبل أن يهرع بعضهم إلى نجدة الشاعر الذي تهالك جسده على حافة كرسيه. أصعدوه إلى غرفته.

وفي اليوم ذاته انتشر خبر وفاته في انحاء العالم الذي تلقاه بتأثر ديني.



Twitter: @ketab_n

# توماس مان

# موت في البندقية

إن الانبهار المميت الذي يمكن أن يمارسه الجمال الجسدي هو الموضوع الذي يعالجه مان في هذه الرواية. الجمال هنا يقود إلى الاضطراب الرهيب في الروح، إلى فقدان التوازن، إلى الموت ... إلا أن الفنان المنتهي هذه النهاية المأساوية بعد انفلات طاقاته المكبوتة وقوى نفسه الجامحة ليس كائناً فرداً. إنه ألمانيا التي ستنفلت فيها قوى مجنونة على المستوى الجماعي فيما بعد، فيما تعيش البورجوازية مرحلة انحطاطها، على قيد شبر من الهاوية.

أزمنة

تلفاكس 5522544 6 00962 ص.ب 950252 عمّان 11195 الأردن

ISBN 978-9-9570959-8-7